تعليمنا إلى أين؟

تعليمنا إلى أين

رسالة إلى الأمة العربية

زهير أحمد السباعي

العبيكان
Obeikan

ⓒ زهير أحمد السباعي، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السباعي، زهير أحمد
تعليمنا إلى أين./ زهير أحمد السباعي - ط١ .- جدة، ١٤٢٨هـ
١٠٠ص؛ ١٤ × ٢١سم
ردمك: ٦-٧٩٩-٥٧-٩٩٦٠
١- التعليم - نقد - السعودية أ- العنوان
ديوي ٣٧٩,٥٣١ ١٤٢٨/ ٣١٠٦

رقم الإيداع: ١٤٢٨/ ٣١٠٦
ردمك: ٦-٧٩٩-٥٧-٩٩٦٠

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

حقوق الطباعة محفوظة للمؤلف

يطلب من

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة
ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمـــز ١١٥٩٥
هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى في محكم كتابه:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر: ٢٧، ٢٨).

وقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

(الرعد: ١١)

"عندما أطلقت الطاقة الذرية من عقالها، تغير كل شيء في العالم ماعدا أسلوبنا في التفكير" "ألبرت انشتاين"

"قد لا نستطيع أن نعرف مايخبئه لنا المستقبل، ولكننا نستطيع أن نعد أنفسنا له"

"إيليا بريجوجين"

حاصل على جائزة نوبل

المحتويات

الموضوع	الصفحة
شكر	11
تمهيد	13
مقدمة	15
الفصل الأول: نحن والآخر	19
الفصل الثاني: من تجارب الأمم	35
الفصل الثالث: إلى أين المسار؟	53
الخلاصة	91
المراجع	95

شـــكر

أود ان أشكر كل الأصـدقـاء الذين دارت بيني وبينهم حـوارات طويلة حول موضوع هذه الرسالة مما أسهم في بلورة بعض الأفكار وإعـادة النظر في البـعض الآخـر، كـمـا أشكر الدكـتـور عـصام التـوم والأستاذ مـحمد سليمان والأستاذ أيمن أحمد فتيني والأسـتاذ إمام أحـمـد مـسـعـود على مـا قـدمـوه من مـسـاعـدة في جـمع المعلومـات وتنضيد هذه الصفحات. وأخص بالشكر الصديقين معالي الدكتور راشـد بـن راجح الشـريف والأسـتـاذ عـبـدالفـتـاح أبومـدين على مقترحاتهما القيمة التي أبدياها على مسودة الكتاب.

تمهيد

ما الهدف؟ وما الوسيلة:

عندما كُلف نبي الهدى محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه بحمل الرسالة. وضع لنفسه هدفاً أن ينشر كلمة التوحيد. حدد الهدف وسعى إليه مثابراً وفي بضع وعشرين سنة حقق هدفه بعون من الله تعالى.

وعندما هزمت اليابان وألمانيا في الحرب العالمية الثانية. ووضعتا لنفسيهما هدفاً أن تصبحا قوة اقتصادية ضاربة، سعتا إلى الهدف، وبلغتاه في أقل من نصف قرن.

أيرلندة كانت أفقر دولة أوروبية. وضعت نصب عينيها هدفاً أن تصبح واحدة من أغنى دول أوروبا. سخرت طاقاتها لبلوغ هذا الهدف، وحققته خلال ثلاثة عقود.

ماليزيا عاشت زمناً على صادرات المطاط. وضعت لنفسها هدفاً أن تتحول من اقتصاد المطاط إلى اقتصاد التقنية، ومنه إلى اقتصاد المعلومات، وبلغته خلال عقود قليلة.

وعندما زُرعت إسرائيل في قلب الأمة العربية، وضعت لنفسها هدفاً أن تصبح إسرائيل الكبرى من الخليج إلى المحيط، وهي اليوم تسخر كل طاقاتها للوصول إلى هدفها وبكل الطرق والوسائل.

ترى هل آن الأوان لأن يضع العالم العربي لنفسه هدفاً يبلغه.

ما الهدف؟ وما الوسيلة؟

هذا ما نحاول أن نلقي الضوء عليه في هذه الرسالة.

مقدمة

اليوم الأحد، الثلاثون من يوليو ٢٠٠٦، الموافق لليوم التاسع عشر للهجوم الإسرائيلي على لبنان. الوضع مأساوي. بيوت هدمت على ساكنيها. بعضهم مازال تحت الأنقاض وما من وسيلة لإنقاذهم، فالإمكانات محدودة والقصف الجوي مستمر. عزَّ الغذاء والدواء ووسائل الإسعاف. أكثر من ٧٠٠ ألف مواطن لبناني هجروا مساكنهم في اتجاه الشمال يبحثون عن ملاجئ يلجؤون إليها. قمة المأساة كانت قصف قانا. الضحايا٦٠ قتيلاً أكثرهم من النساء والأطفال، وآخرون مازالوا تحت الأنقاض.

وسائل الإعلام تبحث باستفاضة عن الأسباب والنتائج.

الجميع مهموم بالحدث ويتساءل: كيف انتهينا إلى ما انتهينا إليه؟

هل هي مصالح الدول العظمى؟

أم هو تفرقنا وذهاب ريحنا؟

أم تراه ضعف اقتصادنا وصناعتنا وفقر أداة الحرب لدينا؟

قد تكون هذه كلها مجتمعة. ولكن يظل وراءها سبب رئيس.. ذلك هو قصورنا في إعداد الإنسان العربي لمواجهة متطلبات

العصر وتحديات المستقبل... مشكلتنا الأساسية في الأمة العربية تكمن في التعليم.. ثم التعليم.. ثم التعليم. بدءاً من رياض الأطفال وانتهاءً بالدراسات العليا، تعليمنا غير موجه بما يكفي في محتواه وأسلوبه لرقي الأمة و تطورها.

يقول المولى عز وجل في محكم كتابه الكريم: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ (الأنفال: ٦٠).

ماهذه القوة التي يدعونا إليه القرآن؟

إنها قوة العلم الذي يصنع الباخرة والسيارة والطائرة والدبابة ويبدع تقنيات الاتصال. العلم الذي يشيد الجسور ويستزرع الصحراء ويستخرج الماء من جوف الأرض ويكتشف أسرار الخلية والذرة، العلم الذي يحلق بالإنسان في أجواء الفضاء وينزل به إلى أعماق البحار. العلم المرتبط بحاضر الأمة ومستقبلها والموصول بالعقيدة السمحة التي تدعو إلى عزة الانسان وكرامته.

هزتني أحداث لبنان من الأعماق. قلت لنفسي في محاولة لتهدئتها: غداً ستنجلي الغمة وتعود لبنان لؤلؤة الأبيض المتوسط إلى سابق عهدها.

لكن نفسي لم تتركني في سلام.. قالت لي:

وماذا بعد غد.. ماذا بعد عشر أو عشرين أو خمسين سنة؟ هل سنظل كما نحن أمة عاجزة، كل ما تملكه هو الشجب

والاستنكار والشكوى لمجلس الأمن؟ هل الأيام وحدها كفيلة بحل مشكلتنا؟

وأجابت نفسي نفسي أن لا.. لا بد من التغيير الهادف. وإذا كان هناك جانب في حياتنا أولى بالتغيير والتطوير من أي شيء آخر فهو التعليم.

وجدتني أسطر هذه الرسالة للأمة العربية. لم أرد بها بحثاً مستفيضاً، وإنما هي رسالة قصيرة. آمل أن تسهم مع رسائل أخرى وجهت قبلها وستوجه بعدها. في إثارة اهتمام الأمة العربية بأهمية تطوير التعليم.

التعليم الذي أعنيه ذلك الذي يربي الإنسان، ويطور ملكاته، ويعده لكي يفكر ويخطط ويستكشف. يهيئه ليكون أداة صالحة للتغيير إلى الأفضل. وليس مجرد تزويده بالمعلومات ومنحه شهادة تخرج.

مسؤولية التعليم وتطويره ليست وقفاً على وزارة أو إدارة ما. وانما هي مسؤولية مشتركة تتحملها الأمة ممثلة في قطاعيها الحكومي والأهلي، وفي وزاراتها المختلفة، التعليم والتربية والمالية والاقتصاد والتخطيط والإعلام والعمل وغيرها من الوزارات.

تطوير التعليم لن يتأتى إلا إذا سبقه ومهد له إيمان بالقضية، وفكر هادف، وتخطيط علمي سليم.

الذي أرجوه من رسالتي هذه أن يقف القارئ بين سطورها

وفي نهايتها ليتساءل: ما الذي أستطيع أن أفعله شخصياً لأشارك في هذه المسيرة.

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت. أسأل الله أن يكتب لي به أجراً إن أخطأت، وأجرين إن أصبت. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

الفصل الأول

نحن والآخر

البيئة أم الوراثة؟

ترى هل الفوارق بين الشعوب جينية أم بيئية؟ موروثة أم مكتسبة؟ لا أعرف أي دراسة علمية استطاعت أن تثبت وجود فوارق وراثية في الذكاء والقدرة على التعلم بين الشعوب. وإنما هي المؤثرات البيئية التي تحيط بالإنسان من لحظة إخصاب البويضة إلى نهاية مرحلة الحياة. هناك فوارق في الاستعدادات الوراثية بين الأفراد، ولكن ليست بين الشعوب والأجناس. ليس بين الأبيض والأسود أو بين أمم الشمال والجنوب. وإذا كانت هناك محاولات لإثبات هذه الفوارق. كما أراد أن يوحي بها كاتب مثل جوستاف لوبون في كتابه "سر تطور الأمم" فهي محاولات مغرضة لا تستند إلى سند علمي.

من أهم المراجع التي استندت إليها في بحثي تقرير التنمية البشرية الذي يصدره برنامج الأمم المتحدة الإنمائي

كل عام http:/hdr.undp.org في هذا التقرير صنفت دول العالم في سلم التنمية البشرية تبعاً لمعايير محددة يأتي على رأسها التعليم والصحة والمستوى الاقتصادي.

استعرض تقرير عام ٢٠٠٥م وضع التنمية البشرية في ١٧٧ دولة تبدأ بالنرويج في أول القائمة وتنتهي بالنيجر في آخرها. صنفت الدول إلى ثلاثة مستويات:

١- المستوى الأول: ٥٧ دولة تتميز بتنمية بشرية مرتفعة حصلت كل منها على (٨٠٠-١٠٠٠ درجة). تضمنت القائمة أربع دول عربية هي قطر وترتيبها (٤٠) والإمارات العربية المتحدة (٤١) والبحرين (٤٣) والكويت (٤٤).

٢- المستوى الثاني: ٨٨ دولة ذات تنمية بشرية متوسطة (٥٠٠-٧٩٩ درجة) شملت ١٢ دولة عربية هي الجماهيرية العربية الليبية (٥٨) وعمان (٧١) والمملكة العربية السعودية (٧٧) ولبنان (٨١) وتونس (٨٩) والأردن (٩٠) والأراضي الفلسطينية المحتلة (١٠٢) والجزائر (١٠٣) والجمهورية السورية (١٠٦) ومصر (١١٩) والمغرب(١٢٤) والسودان (١٤١).

٣- المستوى الثالث: ٣٢ دولة ذات تنمية بشرية منخفضة (أقل من ٥٠٠ درجة) وتشمل ثلاث دول عربية: جيبوتي (١٥٠) واليمن (١٥١) وموريتانيا (١٥٢). أما العراق والصومال فلم تصنفا في التقرير ربما للأحداث الدامية فيهما.

جاء في مقدمة الدليل "إن دليل التنمية البشرية يشكل أداة مهمة لرصد الاتجاهات الطويلة الأمد في التنمية البشرية، ويرتكز إعداده على منهجية ثابتة وعلى البيانات المتوافرة عند إعداد التقرير". ومع هذا فلا بد من الإشارة إلى أن هذا الدليل جهد بشري قابل للخطأ والصواب. ولكنه المصدر المتوافر لدينا حالياً. ومن ثم استندنا إليه في بحثنا حول وضع التعليم وعلاقته بالتنمية في العالم العربي.

من أجل المقارنة اخترنا ١٥ دولة تضم بضع دول عربية. واخترنا مجموعة محددة من المعايير المتصلة بمستوى التنمية في هذه الدول يأتي على رأسها مستويات التعليم والصحة والاقتصاد نلاحظ في الجداول العلاقة المطردة بين ترتيب الدول في قائمة التنمية البشرية وهذه المعايير. (جداول ١، ٢، ٣).

جدول (١) ترتيب التنمية البشرية لدول مختارة وعلاقتها بالسكان

ترتيب الدولة في دليل التنمية البشرية	اسم الدولة	مجموع السكان بالملايين	السكان دون عمر ١٥ عاما (%)
1	النرويج	٤,٦	١٩,٩
10	الولايات المتحدة الأمريكية	٢٩٣	٢١,١
13	فنلندا	٥,٢	١٧,٧
28	جمهورية كوريا	٤٧,٥	١٩,٥
41	الامارات العربية المتحدة	٤	٢٢,٨
61	ماليزيا	٢٤,٤	٣٣
71	عمان	٢,٥	٣٥,٢
77	المملكة العربية السعودية	٢٣,٣	٣٨,٢
89	تونس	٩,٩	٢٧,٥
106	سوريا	١٨,١	٣٨
119	مصر	٧١,٣	٣٤,٣
124	المغرب	٣٠,٦	٣١,٩
138	غانا	٢١,٢	٣٩,٩
151	اليمن	١٩,٧	٤٧,١
177	النيجر	١٣,١	٤٩

المصدر: تقرير التنمية البشرية ٢٠٠٥ (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي)

http:/hdr.undp.org

جدول (٢) ترتيب التنمية البشرية لدول مختارة وعلاقتها بالمستوى الاقتصادي ونسبة الالتحاق بالتعليم

ترتيب الدولة في دليل التنمية البشرية	اسم الدولة	الناتج المحلي الاجمالي للفرد (دولار)	نسب الإلتحاق بالتعليم (%)
1	النرويج	٣٨٠٠٠	١٠٠
10	الولايات المتحدة الأمريكية	٣٨٠٠٠	٩٣
13	فنلندا	٢٨٠٠٠	١٠٠
28	جمهورية كوريا	١٨٠٠٠	٩٣
41	الامارات العربية المتحدة	٢٢٠٠٠	٧٤
61	ماليزيا	١٠٠٠٠	٧١
71	عمان	١٤٠٠٠	٦٣
77	المملكة العربية السعودية	١٣٠٠٠	٥٧
89	تونس	٧٠٠٠	٧٤
106	سوريا	٤٠٠٠	٦٢
119	مصر	٤٠٠٠	٧٤
124	المغرب	٤٠٠٠	٥٨
138	غانا	٢٠٠٠	٤٦
151	اليمن	٨٨٩	٥٥
177	النيجر	٨٣٥	٢١

المصدر: تقرير التنمية البشرية ٢٠٠٥ (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي)

http:/hdr.undp.org

جدول (٣) ترتيب التنمية البشرية لدول مختارة وعلاقتها بوفيات الأطفال الرضع، والإنفاق على الصحة

ترتيب الدولة في دليل التنمية البشرية	اسم الدولة	معدل وفيات الأطفال الرضع في الـ١٠٠٠	الانفاق على الصحة لكل فرد($)
1	النرويج	٣	٣٤٠٩
10	الولايات المتحدة الأمريكية	٧	٥٢٧٤
13	فنلندا	٤	١٩٤٣
28	جمهورية كوريا	٥	٩٨٢
41	الامارات العربية المتحدة	٧	٧٥٠
61	ماليزيا	٧	٣٤٩
71	عمان	١٠	٣٧٩
77	المملكة العربية السعودية	٢٢	٥٣٤
89	تونس	١٩	٤١٥
106	سوريا	١٦	١٠٩
119	مصر	٣٣	١٩٢
124	المغرب	٣٦	١٨٦
138	غانا	٥٩	٧٣
151	اليمن	٨٢	٥٨
177	النيجر	١٥٤	٢٧

المصدر: تقرير التنمية البشرية ٢٠٠٥ (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي)

http:/hdr.undp.org

يلاحظ في شكل (١) العلاقة المطردة بين ترتيب الدولة في سلم التنمية البشرية والناتج المحلي الإجمالي للفرد.

شكل (١) ترتيب دول مختارة حسب دليل التنمية البشرية ومعيار الاقتصاد (الناتج المحلي الإجمالي للفرد بالدولار الأمريكي).

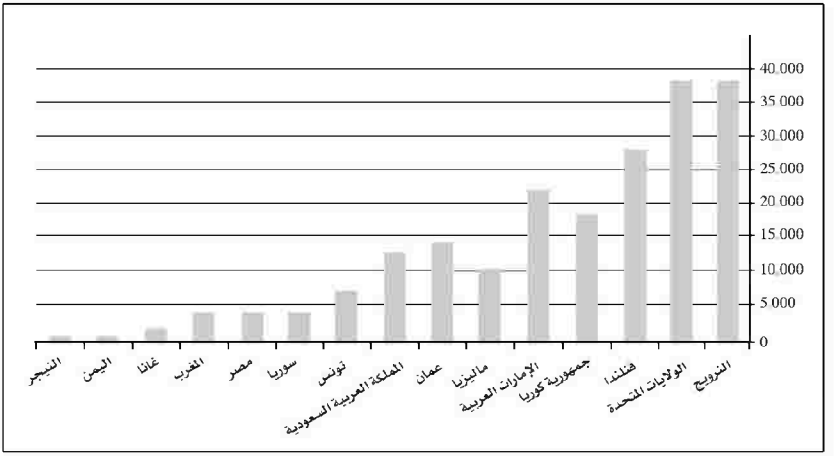

التعليم الجامعي:

إذا ما أتينا إلى وضع جامعاتنا العربية مقارنة بجامعات العالم، فأمامنا دراسة مقارنة (www.webmetrics) عن جامعات العالم حسب ترتيبها دولياً تبعاً لمستوى التعليم والبحوث التي تجري فيها.

فيما يلي ملخص للدراسة:

- خلت قائمة أفضل ١٠٠٠ جامعة في العالم من أي جامعة عربية، بينما ظهرت في القائمة سبع جامعات إسرائيلية من أصل ١٥ جامعة إسرائيلية.

- سيطرت جامعات أمريكا على المراتب الخمس الأولى وتلتها بفارق كبير كندا ثم ألمانيا وبريطانيا وأستراليا على التوالي.

- تم تصنيف ٦ جامعات عربية فقط من بين أفضل ٣٠٠٠ جامعة وترتيبها كما يلي:

- الجامعة الأمريكية بالقاهرة (المرتبة ١٥١٨).
- جامعة بيرزيت الفلسطينية (المرتبة ١٧٨١).
- جامعة الإمارات العربية المتحدة (المرتبة ١٧٨٦).
- كليات التقنية العليا الإماراتية (المرتبة ١٨٢٠).
- جامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالمملكة العربية السعودية (المرتبة ١٩٤٥).
- جامعة الكويت (المرتبة ٢٤٦٠).

هذه الدراسة قد لا تكون موضوعية أو دقيقة، ولكنها يجب أن تنبهنا إلى أهمية أن نتدارس وضع جامعاتنا مقارنة بالجامعات الأخرى.

لقد صادفت في مسيرة حياتي نماذج مشرفة في تعليمنا الجامعي تتمثل في لفيف من الأساتذة والمسؤولين ممن وهبوا

أنفسهم للعلم. ولكن الصورة العامة لوضع الجامعات تستحق منا وقفات.

- التعليم في جامعاتنا العربية أكثره تلقيني. تتنقل فيه المعرفة من الأستاذ إلى الطالب في اتجاه واحد، وحظ النقاش والحوار ضئيل.

- المناهج غير متصله بقدر كافٍ بحاجة المجتمع الآنية أو المستقبلية.

- مركزية الإدارة تعوق أي تقدم حقيقي للمشروعات. فكثير من القرارات التي يمكن لرئيس القسم أن يتخذها لا يبت فيها إلا العميد أو مدير الجامعة، وبعضها لا يجد الحل إلا من قبل الوزارة.

- التعليم في الكليات العلمية مثل الطب والهندسة باللغة الإنجليزية. والطالب عادة لا يتقنها ومن ثم يتعثر في قراءته واستيعابه. نادينا بأن يكون التعليم بلغتنا الأم على أن يتتقن الطالب لغة أجنبية شأن كثير من الدول المتقدمة اقتصادياً وصناعياً مثل اليابان ودول أوروبا وإسرائيل. ولكن لا مجيب. وإذا جاءتك الإجابة ففحواها "إن هؤلاء غير!! ".

التعليم ما قبل الجامعي:

بَعُد عهدي به، إلا انني أجد آثاره في طلابي الذين أستقبلهم في سنتهم الأولى بالجامعة، وفي أبنائي وأحفادي، وفي الشباب الذين تجمعني بهم الظروف والمناسبات.

أستعرض هنا بضع مواقف قد يكون لها دلالة.

جاءتني زوجتي ليلة امتحان الفقه في امتحانات الثانوية العامة مضطربة تريدني أن أشرح لها بعض ما غمض عليها. حاولت وعجزت. اتصلت بصديق لي من المشايخ الذين لهم باع في الدعوة. دعاني إلى بيته. أخذ يطالع كتاب الفقه ويقوم من مجلسنا بين الفينة والأخرى ليتصل بأحد مشايخه يستوضحه ما غمض عليه!

دأبت لفترة من الزمن على ترجمة خطبة الجمعة لغير الناطقين بالعربية في مركز الدعوة بالخبر. طلبوا مني أن أحدثهم في أسبوعهم المقبل عن الزكاة، فتحت باب الزكاة في كتب الفقه لأحضر الموضوع، فوجدته يتحدث بتعابير لا تمت لعصرنا بصلة، طلبت من شيخنا وأستاذنا الدكتور زغلول النجار أن يقوم عني بالمهمة. فعل جزاه الله خيراً ولكن على علو منزلته لم يستطع أن يتطرق إلى الموضوع بروح العصر.

أتساءل.. ما بال شبابنا ينجحون في امتحان الثانوية العامة بمعدلات تتجاوز ٩٠٪ فما فوق، وعندما نستقبلهم في جامعاتنا نجدهم ضعافاً في اللغة العربية واللغة الإنجليزية والتعبير والعلوم. هل صحيح أن المتفوقين منهم في بعض الدول العربية يحصل أحدهم على ١٠٥٪ في امتحانات الثانوية العامة!!

ما بالي أجلس إلى بعض شبابنا -ولا أقول كلهم- فأجد تفكيرهم يميل إلى السطحية، واهتماماتهم محدودة، وقدراتهم على الحوار الذكي غير مقنعة؟

لا شك أنها مسؤولية مشتركة بين المدرسة والبيت والمجتمع.

مدير مدرسة خاصة ألحقت بها ابني. راح مديرها يشكو لي من أن الصيانة والنظافة تستهلك جزءاً كبيراً من ميزانية المدرسة. اقترحت عليه أن يقوم الطلاب أنفسهم بشؤون النظافة والصيانة بعد أن يدربوا عليها.. كاد أن يغمى عليه!

في بيوتنا نستجيب لتوقعات المدرسة من التلميذ. المهم أن يذاكر لينجح. ذات يوم وجدت زوجتي تراجع لابنتنا ما استظهرته من كتاب العلوم. حاولت أن أتدخل للتذكير بأن المهم هو الفهم والتأمل والتساؤل والحوار وليس الاستظهار. رددت على أعقابي. "دع البنت تنجح أولاً.. ثم بعدين تفكر!".

السؤال الذي يطرح نفسه.. لماذا لسنا في مقدمة الدول بالرغم مما حبانا الله من:

- عقيدة سمحة تدعو إلى التفكير والتدبر وعمارة الأرض والتفوق والسمو.
- قوى بشرية.. إلا أنها من أسف تهاجر بعشرات الألوف في كل عام إلى مشارق الأرض ومغاربها.

● مصادر طبيعية مثل البترول والغاز الطبيعي والمعادن. تفتقر إليها كثير من البلدان المتطورة صناعياً.

ثورة الاتصالات والمعلوماتية. أين نحن منها؟

استضاف منتدى عبد الحميد شومان الثقافي بالأردن مجموعة من المفكرين العرب للحوار حول "العرب وتحديات القرن العشرين".

قيل فيما قيل: "إن ثورة الاتصالات والمعلومات سوف تقود في العقود القادمة إلى سيطرة المجموعات البشرية التي تتحكم في المعرفة العلمية والخبرة التقنية. وسوف يسمح لها هذا التفوق بفرض سياستها ومصالحها على الآخرين. أما المحرك الأساسي لثورة المعلومات فهو تطوير البحث العلمي، وتحديث طرق الإدارة، والتكتل الإقليمي.[١]

لو قدر لي أن أختار واحداً من المراجع التي رجعت إليها لأتحدث عما فيه باستفاضة لاخترت تقرير مكنزي عن تطوير التعليم في دول الخليج العربي[١٩]. تقرير يجدر بنا أن نتدارسه؛ ذلك أنه يركز على جملة قضايا يأتي على رأسها أهمية تطوير المعلم قبل أي شيء آخر. يذكرني هذا بالحوار الذي دار بيني وبين معالي الدكتور علي فخرو وزير التربية والتعليم الأسبق في البحرين. عندما سألته: لو قدر لك أن تسهم في تطوير التعليم في دول الخليج، ما هي أولياتك؟ قال: تطوير المعلم.

يقول تقرير مكنزي "بعد أن خطت دول الخليج العربي خطوات بعيدة المدى في نشر التعليم الابتدائي والثانوي بين مواطنيها أصبح يواجهها تحد آخر، ذلك هو تحسين نوعية التعليم. ولكي تحقق هذا الهدف يأتي تطوير قدرات المعلم على رأس الأولويات".

"لقد ركزت دول الخليج عبر عقود من الزمن على قضية زيادة عدد المدرسين في مدارسها على أمل أن يرفع ذلك من مستوى أداء التلاميذ. ولكن اختبار القدرات العالمي في العلوم والرياضيات (TIMSS) الذي شاركت فيه المملكة العربية السعودية والبحرين، أوضح تدني مستوى أداء التلاميذ. فمن بين ٤٥ دولة شاركت في هذه الدراسة جاءت سنغافورة وكوريا الجنوبية وهونج كونج في المقدمة، في حين جاءت المملكة العربية السعودية في المرتبة ٣٩ في العلوم والمرتبة ٤٣ في الرياضيات".

"هذه النتيجة يجب أن تنبه المسؤولين عن التعليم في دول الخليج إلى أهمية إعادة النظر في نظام التعليم وبخاصة التركيز على نوعية المدرسين بدلاً من التركيز على زيادة أعدادهم في المدارس.. وهذا يستدعي بالضرورة حسن اختيار من يدخل مهنة التدريس ونوعية التدريب الذي يحصل عليه. كما يستدعي أيضاً فصل الجهة التي تقوم بوضع المعايير وتقييم مخرجات التعليم عن وزارات التربية والتعليم".

يستطرد التقرير فيقول: "يمكن أن يكون لدينا أفضل منهج دراسي، وأفضل بناء، وأفضل تجهيزات، وأفضل نظم إدارية، ولكن إن لم يكن لدينا مدرس جيد فالنتيجة خسارة على كل الستويات. دول الخليج تركز على زيادة عدد المدرسين بدلاً من نوعيتهم. ومن ثم نجد أن المعدل في دول الخليج هو مدرس لكل ١٢ طالباً. في حين أن المعدل في المدارس في سنغافورة هو مدرس لكل ٢٤ طالباً. جميع الدراسات التي أجريت تشير إلى أنه لا توجد علاقة قوية بين معدل المدرسين للطلاب ومخرجات التعليم كما هي العلاقة بين نوعية المدرس ومخرجات التعليم. وعلى ذلك فالخيار أمام دول الخليج هو إما أن تركز على زيادة عدد المدرسين أو أن تستثمر في تدريب وتطوير المدرسين. بلدان مثل سنغافورة وكوريا الجنوبية وهي على رأس القائمة في مستوى التعليم اختارت البديل الثاني".

ويؤكد التقرير أن الأموال التي تستثمر حالياً في دفع رواتب ومكافآت الأعداد الكبيرة من المدرسين يمكن أن تستثمر بشكل أفضل في تدريب وتأهيل أعداد أقل من المدرسين للوصول إلى نتائج أفضل. ويخرج التقرير بمجموعة من التوصيات العملية لتطوير التعليم في دول الخليج يا حبذا لو عقدت حولها ورش عمل وندوات لاختيار الأصلح منها لتطبيقه. ويعود التقرير ليؤكد أن "الركيزة في عملية تطوير التعليم في دول الخليج يجب أن تكون في توظيف معلمين أفضل في المدارس وليس معلمين أكثر". كما لا

يهمل التقرير أهمية إعادة النظر في الإدارة المدرسية وتهيئة المدراء لأداء دورهم في تطوير التعليم.

الخلاصة هي أن التعليم في العالم العربي في جميع مراحله يواجه مشكلة، علينا أن نعترف بها وأن نواجهها بشجاعة. ألا يكفينا أن من بين ١٠٠٠ جامعة الأولى في العالم توجد ٧ جامعات إسرائيلية ولا توجد جامعة عربية واحدة. وأن أفضل جامعاتنا تحتل المرتبة ١٥٩٠ في سلم الجامعات في العالم؟

إذا كنا لا نطمح إلى إيجاد أجوبة على كل الأسئلة المطروحة، فإننا نرجو على الأقل أن نتحفز للتفكير والنظر فيما أصبحنا فيه، لنتغير إلى الأفضل، لنصبح أقوى مما نحن عليه اليوم اقتصادياً وصناعياً وثقافياً، وبما لا يفقدنا أصالتنا وارتباطنا بمبادئنا وعقيدتنا.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: ١١).

الفصل الثاني

من تجارب الأمم

نستعرض في هذا الفصل لمحات من تجارب بعض الأمم. اخترنا أربع دول: اليابان وكوريا وفنلندا وإيرلنده. جميعها في الشريحة العليا من تصنيف الأمم المتحدة للتنمية البشرية. اثنتان من الشرق والأخريان من الغرب. يجمعهم أمران أولهما أنها جميعها كانت دول متأخرة اقتصادياً وصناعياً قبل نصف قرن، وثانيهما أن تطوير التعليم كان له دور بارز في نموها الاقتصادي والصناعي.

اليابان:

زرت اليابان قبل ربع قرن. لفت نظري بضعة أمور. رفض حامل الحقائب في المطار أن يأخذ مني "البقشيش". رده علي بلطف معتذراً بأنه مأجور على عمله. عزوت ذلك إلى رقي الأمة.

رتبت لي السفارة السعودية زيارة إلى بعض المراكز الصحية في الريف الياباني. لاحظت في المركز الصحي الريفي الذي زرته

أن غرفه وردهاته مزدانه بأصص الزهور، وأن المرضى يتركون أحذيتهم عند مدخل المركز وينتعلون أخفافاً يتجولون بها داخله. حاولت عبثاً ان أجد عقب سيجارة أو ورقة ملقاة على الأرض لكي أعزي نفسي بأننا كلنا في الشرق سواء فباءت محاولتي بالفشل.

أخذني مرافقي الياباني إلى بيته. لفت نظري التأثير الغربي ظاهراً للعيان في أثاث البيت وفرشه. عرفني على ابنه.. صبي في الثانية عشرة من عمره. ذكر لي الصبي أن هوايته علم الفلك. لم ألتفت إلى الموضوع إلى أن أخذني إلى حديقة المنزل ليريني التلسكوب الذي يرقب به النجوم، وأطلعني على دفاتره وخرائطه وكلها تشير إلى جدية الصبي.

لقد صدق من قال: "رب ضارة نافعة". عقب هزيمة اليابان أمام جيوش الحلفاء حاولت الثقافة الأمريكية أن تغزو اليابان. ولكن اليابان التي استسلمت في الحرب لم تستسلم للغزو الثقافي. ردة الفعل كانت تغييراً جذرياً في نظام التعليم. تغيير نبع من حاجة المجتمع ورؤيته ولم يفرضه المنتصر. أولوا اهتماماً بالابتعاث إلى جامعات الغرب، بهدف استيعاب ثقافة الغرب لا الذوبان فيها. حافظوا على اللغة اليابانية لغة للتعليم في جميع مراحله على الرغم من أنها من أصعب لغات الأرض. يتعلم الطالب العلوم والهندسة والطب والآداب والفنون باليابانية، وفي الوقت نفسه

أعطوا اهتماماً كبيراً للترجمة من اللغات الحية. أصبح الكتاب الغربي يصدر وفي نفس الشهر تصدر معه الترجمة اليابانية.

بدأت نهضة اليابان إثر الهزيمة التي منيت بها في الحرب العالمية الثانية بتغيير جذري في نظام التعليم.. ولأن اليابان تفتقر إلى الموارد الطبيعية فقد قرروا أن يستثمروا في الإنسان الياباني، بأن يضعوا قاعدة قوية للتعليم تخرج لهم العلماء والفنيين والإداريين والصناع المهرة. اليوم يصرف على التعليم في اليابان ١٢٪ من الدخل القومي، أي أكثر مما يصرف على التسليح (٧,٧٪).

قرروا أن يبدؤوا بالمعلم فيطوروا قدراته. تلقت الغالبية العظمى من المعلمين اليابانيين دراسات في أصول التربية وعلم السلوك وعلم النفس وإعداد المناهج وطرق التدريس. طوروا أساليب التدريس ليصبح دور المعلم تهيئة الطالب للبحث عن المعلومة واستيعابها بدلاً من دوره التقليدي الذي كان يلقي فيه المعلم الدرس والطالب يسطر من ورائه ما يقول. ومن ثم غدا المعلم الياباني عارفاً بأسس التربية، يتمتع بدخل مرتفع، ويحظى باحترام المجتمع، وفوق ذلك كله تهتم مدرسته بشؤونه وشؤون أسرته وأطفاله.

فلسفة التعليم في اليابان ترتكز على مفهوم التعاون بين التلاميذ (COOPERATIVE APPROACH) أما تربية التلميذ فمسؤولية مشتركة بين المدرسة والبيت والمجتمع (COLLECTIVE RESPONSIBILITY) ذهبوا إلى أبعد من

ذلك فجعلوا للمدرسة دوراً في إيجاد فرصة للطالب عند تخرجه.[١٢]

يرتكز نظام التعليم في اليابان على الحوار والمناقشة، كما يتوقع من التلميذ أن يكون له رأي في المنهج الدراسي، وأن يتمتع بقدر وافٍ من حرية التعبير، وأن يمارس نشاطات متعددة خارج المنهج الدراسي (GROUP ACTIVITIES)[١٣] من هذه النشاطات مسؤوليته حيال نظافة المدرسة وصيانتها بدءاً من مسح البلاط وانتهاءً بالسباكة وزراعة حديقة المدرسة. لايوجد شركات نظافة أو عمال يتولون التنظيف والصيانة في المدرسة اليابانية إذ هي مسؤولية الطلبة أنفسهم.

وجد أن معدل رضا الطلاب عن مدارسهم أعلى من معدل رضا الطلاب في المدارس الغربية، ووجد أن معدل اعتداء الطلاب على أساتذتهم في مدينة نيويورك وحدها يبلغ خمسة أضعاف اعتداءات الطلاب على مدرسيهم في كل اليابان.

جاؤوا إلى النظام واللوائح فطوروها. نقلوا كثيراً من صلاحيات وزارة التربية إلى إدارة المدرسة. أصبح مدير المدرسة ومساعدوه هم أصحاب القرار في كثير من شؤون المدرسة بما في ذلك تعيين المدرسين واختيار المواد التعليمية وتحديد أوجه النشاط التي يقوم بها الطلاب[٢]، غدت إدارة المدرسة مسؤولة عن نتائج

التعليم. وقبل أن يمنحوا إدارة المدرسة حرية الحركة وصلاحية اتخاذ القرار أعدوا المديرين ومساعديهم لتحمل هذه المسؤولية، ووضعوا نظاماً قوياً للمتابعة والتقويم والمحاسبة.

شجعوا القطاع الأهلي وهيأوه ليأخذ دوره في التعليم. يدرس حالياً في المؤسسات التعليمية الخاصة ٧٥٪ من طلاب الجامعات و٩٠٪ من طلاب الكليات المتوسطة و٣٠٪ من طلاب المدارس الثانوية و٨٠٪ من تلامذة رياض الأطفال. التعليم الأهلي مدعوم من الدولة. بعض الدعم يذهب إلى المؤسسة التعليمية الأهلية والبعض الآخر يذهب إلى الطالب على هيئة قروض أو منح دراسية[٢]، المحصلة النهائية هي أن قدرات التلميذ الياباني في الرياضيات والعلوم أعلى من قدرات التلميذ الأمريكي.[١٢]

تطورت اليابان في غضون نصف قرن من دولة منهزمة في الحرب إلى دولة هي الأولى في صناعة السفن والسيارات والأجهزة الإليكترونية في العالم. وفي السنوات الأخيرة تجاوز دخل الفرد الياباني دخل الفرد الأمريكي. من وراء ذلك كله كان استثمار اليابان في التعليم وفي تنمية القوى البشرية.

يقول الدكتور محمد جابر الأنصاري في كتابه (العالم والعرب سنة ٢٠٠٠)[٣]: "إذا مأردنا أن نهيّئ لأنفسنا مكاناً تحت الشمس فيجب علينا أن نتعلم بتواضع من اليابان والصين وكوريا كيفية قدرة

شعوب الشرق على استيعاب التقنية الحديثة وكيفية تحويل الفرد والمجتمع إلى قوة عاملة منتجة قادرة على تجاوز التواكل والاعتماد على الغير والميل المسرف إلى الاستهلاك".

ويبرر المؤلف سر التقدم الياباني بقوله: إن سر نجاح التربية اليابانية لا يعود إلى مجرد الإصلاحات الهيكلية والتنظيمية والنظرية التي استوعبها النظام التربوي الياباني الحديث، وإنما قبل هذا كله إلى الخلفية والقاعدة التعليمية. انطلاق الإصلاح التربوي الياباني من تلك الخلفية مع تطويرها كان السبب الأول في نجاحه واستجابته لنوازع الأمة اليابانية. كما تميز اليابانيون عن غيرهم من الشرقيين بالتخلص من عقدة الاستعلاء الثقافي والأخلاقي تجاه الحضارات الأخرى، فجاء انفتاحهم عليها صحيحاً ومثمراً.

ويقول مالك بن نبي المفكر العربي الجزائري في نظرته إلى الفارق بين العرب واليابانيين في موقفهم من الحضارة الغربية: "إن اليابان وقفت من الحضارة الغربية موقف التلميذ، ووقفنا نحن منها موقف الزبون. هي استوردت منها المعارف بوجه خاص، ونحن استوردنا منها الأشياء الاستهلاكية".

ترى متى تقتنع أمتنا العربية وتعدادها السكاني ثلاثة أضعاف تعداد اليابان بأن تستخدم لغتنا العربية الجميلة في التعليم، وتهتم

في نفس الوقت بالترجمة وإجادة اللغات الحية.. كلنا متفقون على ان إجادة لغة أجنبية حية أو أكثر أمر ضروري لمتابعة تطورات العلم والتقنية وللتواصل مع دول العالم. الخطأ يكمن في الظن بأن تعلم علم من العلوم مثل الطب أو الهندسة بلغة أجنبية كفيل بأن يجيد الطالب هذه اللغة. الطريق الصحيح لإجادة لغة ما، هي أن يتعلمها الطالب كلغة. ولمن أراد أن يتثبت من الأمر عليه أن يطلب من ١٠٠ من خريجي الطب أو الهندسة من جامعاتنا العربية أن يكتب أحدهم صفحة واحدة باللغة الإنجليزية دونما أخطاء أو أن يقرأ صفحة من مجلة أو صحيفة إنجليزية دون أن يتعثر. الحقيقة مُرة ولكن علينا أن نواجهها.

وأنا أكتب هذه السطور أقرأ أن خبراء التعليم في اليابان عاكفون على استحداث مزيد من التغيير في نظام التعليم لينتقلوا به من عصر إلى عصر ومن مرحلة إلى أخرى. التغيير المستمر كالماء الجاري أدعى إلى إخصاب الأرض وإينع الثمر.

علنا نستفيد من تجربة اليابان.

فنلندا:

زرت فنلندا أكثر من مرة. في إحدى زياراتي اصطحبت مجموعة من طلابي في الدراسات العليا بكلية الطب - بجامعة الملك فيصل حيث أمضينا ١٠ أيام في دراسة ميدانية للرعاية

الصحية الأولية في فنلندا بترتيب من منظمة الصحة العالمية ووزارة الصحة الفنلندية. من نافلة القول الحديث عن جمال الطبيعة ورقي الشعب الفنلندي وحيويته، أو عن مستوى الرعاية الصحية. فنلندا من أفضل دول العالم في التعليم والخدمات الصحية.

عدنا من زيارتنا بانطباع هو أن الأساس في ارتفاع المستوى الاجتماعي والاقتصادي في فنلندا يكمن في تطوير الإدارة، وتحديداً بتطبيق اللامركزية في التنفيذ. وزارة الصحة في فنلندا -مثلاً- لايعمل فيها أكثر من ١٠٠ شخص جلهم من الخبراء في التخطيط، مهمتهم وضع الخطط والبرامج ثم المتابعة والتقويم للتأكد من تطابق الأهداف الموضوعة مع النتائج المحققة، أما التنفيذ فمسؤولية الإدارة المحلية أو ما يسمى "الكميون" وهو أصغر وحدة إدارية في فنلندا. قد لا يتجاوز عدد سكان الكميون ١٠,٠٠٠ نسمة يجمعهم حي في مدينة أو قرية. سكان الكميون ينفذون خططهم وبرامجهم الصحية والتعليمية والاجتماعية ضمن الإطار العام الذي تضعه الدولة. ميزانيتهم يأتي بعضها من الحكومة المركزية وبعضها من موارد الكميون نفسه.

يشرف على تنفيذ مشاريع الكميون مجلس محلي يختاره سكان الكميون، أعضاؤه الموظف والتاجر والطبيب والمهندس. هم الأمناء

على الكميون. إذا نجحوا في تحقيق أهدافهم كسبوا تقدير الإدارة المركزية. وإذا قصروا حوسبوا على التقصير.

كانت فنلندا إلى منتصف الخمسينيات الميلادية من القرن الماضي أقل شاناً من بقية بلدان أوروبا اقتصادياً وصناعياً. ثم قرر أهلوها أن يطوروا نظام التعليم كوسيلة للتنمية الاقتصادية والصناعية. تقول وزيرة التعليم في فنلندا: "آمنا بضرورة الاستثمار في التعليم الأساسي والتعليم العالي والبحث العلمي. وما التقدم الاقتصادي الذي حققناه إلا ثمرة نظام التعليم المفتوح الذي طبقناه في بلادنا. ويأتي تقرير الاقتصاد العالمي (World Economic Forum) ليصنف فنلندا كواحدة من أفضل دول العالم في الاقتصاد التنافسي. ويشير إلى أنها تتمتع بحضارة الإبداع (INNOVATION).

ما هذا النظام التعليمي الذي أسهم في الارتقاء بفنلندا؟

يلتحق الطفل الفنلندي بالمدرسة في سن السابعة ليمضي ٩ سنوات في الدراسة بعدها يقرر هو أو ذووه إما الالتحاق بالثانوية العليا أو التوجه إلى التدريب المهني، وكلاهما يمتد لفترة ٣ سنوات. التلميذ لا يمضي ساعات طويلة في المدرسة كما أنه يأخذ إجازات طويلة (بعكس النظام الياباني) بيد أن التعاون وثيق بين المدرسة والبيت. فالفراغ -إذا جازت تسميته- تملؤه الأسرة.

تشير الدراسات الأوروبية إلى أن فنلندا تعد الدولة الأوروبية الأفضل على مستوى تلاميذ المدارس في القراءة والرياضيات والعلوم. وأصبحت التقنية الرقمية (Digital Technology) والتي تتمثل في استعمالات الكمبيوتر والفضائيات هي السمة البارزة في التعليم في فنلندا وأصبح بنك المعلومات الرقمية (Digital broadcast bank) المصدر الأساسي الذي يستقي منه الدارسون موادهم الدراسية[١٤].

أما المستوى العالي الذي حققه التلاميذ الفنلنديون في القراءة والكتابة على مستوى العالم فيعود في الدرجة الأولى إلى التلاحم بين المدرسة والبيت.

في كثير من الدول النامية نجد حوالي ٣٠٪ من التلاميذ يقفون عند المرحلة الابتدائية أو لا يكملونها ومن ثم يعيشون على هامش المجتمع. من الدروس التي نستقيها من تجربة فنلندا أن فنلندا استثمرت في جميع تلاميذها تقريباً، وأوصلتهم إلى قدر أساسي من التعليم يهيئهم لممارسة الحياة.

وبالرغم من أن اللغة الفنلندية لغة محدودة بحدود فنلندا (سكانها ٥,٢ مليون نسمة) فإنها لغة التعليم في جميع مراحله (انظر وتأمل) أما إجادة اللغة الإنجليزية أو إحدى اللغات الحية الأخرى ففرض واجب على كل تلميذ في مدرسة أو طالب في جامعة.

إيرلنده:

سحت بالسيارة في إيرلنده من دبلن شرقاً إلى مدينة جالوس المطلة على المحيط الأطلنطي في أقصى الغرب من الجزيرة.. لن أحدثك عن الطبيعة الساحرة أو النظافة أو التنظيم الذي تجده في كل مكان.. أترك ذلك لخيالك وأتحدث هنا عما رأيته من جدية الناس. الكل مشغول والكل يعمل. ملاحظة أخرى.. السيارات إما صغيرة أو متوسطة وإذا ما وجدت سيارة فارهة فهو الشذوذ عن القاعدة. دليل على القيم المتعارف عليها في المجتمع. ذكرني ما رأيت بأستاذي في أمريكا يوم زرته قبل سنوات ووجدته يمتلك سيارة صغيرة الحجم. سألته لم لا يشتري سيارة أكبر وهو موسع عليه. قال: هذه أفضل لأنها صديقة للبيئة وأقل تلويثاً لها. حاولت أن أقتدي به وأشتري سيارة صغيرة فكانت المقاومة من جميع من حولي.. ماذا يقول عنك الناس؟

تشير كتب الاقتصاد إلى مجاعة البطاطس التي ضربت إيرلنده في منتصف القرن التاسع عشر. يومها كانت إيرلنده في مستنقع الفقر. مرض التيفوس يحصد ما لا يحصى من الأرواح ويسهم في هجرة مئات الألوف إلى دول أوروبا وأمريكا.

بدأت النهضة الاقتصادية في إيرلنده في الخمسينيات الميلادية من القرن الماضي وفي غضون نصف قرن ارتفع النمو

الاقتصادي من ١٪ في عام ١٩٥٠ إلى ٥, ٤٪ في عام ١٩٦٠، وغدا اليوم ٧٪. حالياً تحظى إيرلنده بواحدة من أعلى معدلات التعليم في العالم. أصبحت الشركات العالية تتنافس على خريجي الجامعات الإيرلندية. وبعد أن كانت إيرلنده قبل ٣٠ عاماً أفقر دولة أوروبية أصبح معدل الناتج القومي للفرد فيها أعلى بنسبة ١٠٪ من الدول الأوروبية الأخرى.

يعزو المحللون الاقتصاديون هذا التقدم الاقتصادي والصناعي السريع لإيرلنده إلى عوامل عدة يأتي في مقدمتها الاهتمام بتنمية القوى البشرية.

كوريا:

عندما زرت جمهورية كوريا قبل سنوات مضت كانت تمر بفترة انتقالية من مجتمع محافظ وتقليدي إلى مجتمع يضع قدمه على أول السلم لمرحلة التصنيع والانفتاح الاقتصادي. يومها ظهرت الدعوة واضحة لتغيير نظام التعليم في كوريا ليواكب خطة التنمية الطموحة وليحمل كوريا إلى عالم الصناعة والتقنية. قال لي مرافقي الكوري: "لدينا حساسية نحو اليابانيين.. فبالرغم من اتفاقيات التعاون الاقتصادي معهم إلا أنهم يعطوننا قشور التقنية ويحجبون عنا اللباب"، واستطرد يقول: "ولكننا سوف ننافسهم ذات يوم".

يرتكز النظام التعليمي في كوريا على بضعة جوانب. استبدلوا الحوار والفهم والتحليل بالتعليم التقليدي الذي كان طابعه الحفظ والاستظهار. وأولوا أهمية بالغة لتدريس العلوم والتكنولوجيا والرياضيات. التلميذ الكوري يتفوق اليوم على أقرانه من الأوروبيين والأمريكيين في الرياضيات والعلوم. اهتموا بالتدريب على رأس العمل. وطوروا نظام التعليم المفتوح والتعليم عن بعد.

هذه لمحات من تجارب بعض الأمم التي طورت اقتصادها وصناعتها، واتخذت التعليم الجيد المتميز وسيلة لهذا التطوير. وهناك أمم أخرى ناهضة وواعدة.

ليس هذا فحسب:

هذه الهند تمضي بخطى حثيثة في بناء الاقتصاد المبني على المعرفة. فهي تخطط لكي تصبح قوة معرفية عظمى بما في ذلك إنشاء شبكة المعاهد الوطنية المعنية بشؤون التكنولوجيا والإدارة لتكون قاعدة أساسية للتدريب والبحث، كما تقوم بتوسعة نطاق المرافق والبنى الأساسية لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات لتكون متاحة للجميع.

وتعتبر شيلي إحدى أكثر الدول نمواً في أمريكا اللاتينية، حيث بلغ متوسط معدل نموها ٦,٥٪ خلال العقد الماضي. أما

الاستراتيجية التي اعتمدتها شيلي فهي الاستثمار في الموارد البشرية، وتطوير تكنولوجيا المعلومات والاتصالات.

وفي مجال التجارة وإدارة الأعمال ظهرت في عام ١٩٩٠م نظرية مقاييس الأداء المتوازن (Balanced Score Card) فتفوقت على عشرات النظم الإدارية المعروفة، وتبنتها مئات الشركات الكبرى. لو بحثت لوجدت أن ما يميزها عن غيرها من نظريات الإدارة والجودة الشاملة هي اهتمامها بتطوير العاملين في الشركات والمؤسسات والدوائر الحكومية، ووضع الميزانيات الضخمة لبرامج التعليم والتدريب المتواصل مما ينعكس إيجاباً على إنتاجية المؤسسة والشركة وعلاقتها بالعملاء.

لست أدري إلى أي مدى استفاد مخططونا في التعليم والاقتصاد من تقرير اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا (ESCWA) عن استراتيجيات المعرفة وطرق التطبيق في الدول العربية؟ يربط التقرير الذي أصدرته الأمم المتحدة في عام ٢٠٠٥م[٤] بين تطوير التعليم والنمو الاقتصادي، ويؤكد على أن مستقبل الأمة العربية وازدهارها الاقتصادي يعتمد أكثر ما يعتمد على تطوير التعليم، ويستعرض الارتباط بين النمو السكاني في العالم العربي وضعف إمكانات التعليم، ويطالب بضرورة خلق مزيد من الوظائف في المنطقة العربية، فهناك حاجة إلى توفير ما يزيد

عن ٨٠ مليون وظيفة مع حلول عام ٢٠٢٠م. ويشير التقرير إلى أن ثورة المعرفة لو أحسن استغلالها يمكن أن تؤدي إلى تلبية متطلبات التنمية الاجتماعية والاقتصادية في الدول العربية، وأن النجاح في تحقيق مجتمع المعرفة سيؤدي إلى قفزة إلى الأمام، في حين أن الفشل في ذلك قد يؤدي إلى دوامة التخلف والفقر".

عندما قرأت التقرير تبدى لي أننا بقدر حاجتنا إلى إنشاء المزيد من معاهد التدريب والكليات والجامعات لمقابلة الاحتياج الكمي للقوى البشرية نحن في حاجة إلى إعداد علماء وخبراء على أعلى مستوى من المهارة. هذا ما فعلته الأمم المتقدمة اقتصادياً. اهتمت بالكم والكيف معاً.

آخر ما تفتق عنه ذهن خبراء التنمية هو مصطلح "الفجوة الرقمية" (Digital Divide) ويقصد بها الفجوة التي تفصل بين من يملك المعرفة وأدوات استغلالها ومن لا يملكها. في دراسة عن الفجوة الرقمية بين الذين يملكون والذين لايملكون، نجد أن الفجوة الرقمية لها تأثير بالغ على اقتصاديات الدول، ولسوف يزداد هذا التأثير مع الأيام(٥).

الشكل (٢) يوضح مدى اتساع الفجوة بين أغنى الدول وأفقرها بدلالة متوسط دخل الفرد. الفجوة التي كانت محدودة في عام ١٨٢٠ زادت اتساعاً مع مضي السنين.

شكل (٢) الفجوة بين الدول الغنية والفقيرة تزداد مع الأيام

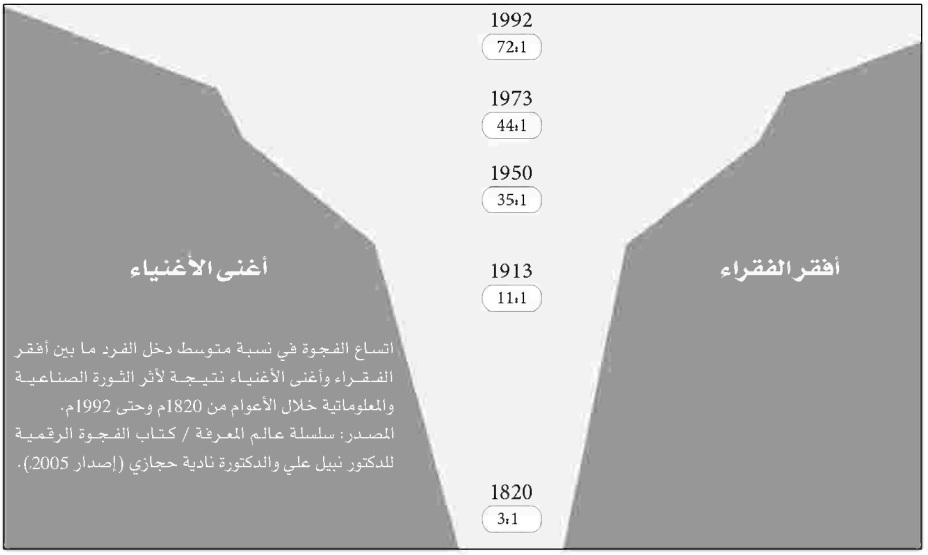

المصدر: الفجوة الرقمية: رؤية عربية لمجتمع المعرفة. سلسلة عالم المعرفة رقم ٣١٨ أغسطس ٢٠٠٥ صفحة ١٤

خلص مؤلفا كتاب الفجوة الرقمية في بحثهما عن مشكلة العالم العربي إلى أن "التربية والتنمية صنوان في مجتمع المعرفة، واقتصاد قائم على المعرفة يعني اقتصاداً قائماً على التعليم. ذلك أن العنصر البشري هو أهم مقومات التنمية الاقتصادية، كما أنه أهم عوامل التغيير. وفي معرض دفاعهما عن تعريب العلوم والدعوة إلى أن تصبح اللغة العربية هي لغة التعلم، يشير المؤلفان إلى تقرير التنمية الإنسانية لعام ٢٠٠٤ الذي أصدره برنامج الأمم

المتحدة الإنمائي، حيث أظهرت الإحصاءات أن الإنتاج العلمي ممثلاً بعدد براءات الاختراع لكل مليون فرد، يزيد في الدول التي تعلم العلم بلغاتها القومية عن تلك التي تعلم العلم باللغات الأجنبية.

ويشير تقرير التنمية الإنسانية العربية الأول لعام ٢٠٠٢م إلى ضعف الترجمة في العالم العربي. فبلد مثل اليونان سكانه ٥٪ من سكان البلاد العربية يترجم قدر ما تترجمه البلاد العربية مجتمعة على مدار العام، كما يقدر مجمل ما ترجم في العالم العربي منذ ١٠٠٠عام حتى الآن بما يترجم حالياً في إسبانيا في عام واحد.

وفي دراسة أجراها فريق عمل من اليونسكو ربط فيها بين الجهل والفقر والمرض حول العالم جاءت الحقائق والأرقام التالية[١٥]:

- ٢٠٪ من سكان العالم هم الأكثر فقراً يتقاسمون فيما بينهم ١,١٪ من ثروات العالم. في حين أن ٢٠٪ من سكان العالم الذين هم الأكثر ثراءً يستحوذون على ٨٥٪ من ثروات العالم.
- تزداد هذه الفجوة مع مضي الزمن، فالفرق بين ٢٠٪ من الدول الأكثر ثراءً و٢٠٪ من الدول الأكثر فقراً زادت من ٣٠ ضعفاً في عام ١٩٦٠ إلى ٨٢ ضعفاً في عام ١٩٩٥م.
- أكثر من ٨٠٠ مليون إنسان يعاني من المجاعة، ونحو ملياري نسمة تعاني من سوء التغذية.

يستطرد التقرير في سرد الأرقام حول مشكلات المياه والصحة والتعليم. ولمن شاء المزيد يمكنه الرجوع إلى المصدر. الذي يهمنا هو مدى ارتباط المشكلات الاقتصادية والبيئية والاجتماعية بعاملين أساسيين هما الجهل والمرض. وأن لا مناص لأي أمة تريد أن ترتقي بنفسها في سلم التنمية الاجتماعية والاقتصادية إلا بتحسين التعليم والرعاية الصحية.

يرى كثير من الخبراء أنه إذا كان من الصعب على العالم العربي أن يلحق بركب الغرب في الصناعات الثقيلة فلن يصعب عليه اللحاق به في مجال الاقتصاد المعرفي. ذلك أن الإنسان العربي لا يعوزه الاستعداد الفطري للتعلم والاختراع والابتكار، ولكن الذي ينقصه هو وضوح الرؤية وتحديد الهدف وتعبئة القوى للوصول إليه.

الفصل الثالث

إلى أين المسار

ليس هناك شيء أفضل من الحلم لصناعة المستقبل

فيكتور هوجو

المشكلة:

تعاني الأمة العربية من مشكلة التعليم، فمستوى جامعاتنا ليس كما نتمنى ونرجو. ومستوى التنمية البشرية في بلادنا ليس المستوى الذي نتطلع إليه، وإذا كانت هناك فرصة للأمة العربية لكي تتقدم في مجالات الصناعة والاقتصاد والاجتماع فالأمر رهين قبل أي شيء آخر بتطوير التعليم. أهدافه ومحتواه وأساليبه. تقول بذلك تجربة الأمم التي انتقلت من التخلف إلى التقدم الاقتصادي في النصف الأخير من القرن الماضي. مثل ماليزيا وإيرلنده وكوريا واليابان وسنغافورة. جميعها ركزت على قضية التعليم وطورته مع بداية انطلاقتها. أي نعم ليس بالتعليم وحده ترتقي الأمم. ولكن بدون التعليم الجيد لا يمكن لأي أمة أن ترتقي وتتقدم.

ما الذي جاء به محمد الرسول الأمين؟ لقد أوحي إليه بالكلمة (اقرأ).

بماذا سادت الدول الإسلامية في عصورها الذهبية؟ بالعلم.. استقت أصوله من تراثها وأضافت إليه ما نقلته من علوم اليونان وفارس والهند. ثم نشرت العلم والمعرفة فيما حولها من أمصار.

كتب ابن سينا كانت تدرس في إيطاليا في القرون الوسطى، وكانت البعوث توفد من أوروبا إلى بغداد وقرطبة لتتعلم.

اقرأ ما كتبته زيغريد هونكه في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب" تجد أنه بالمعرفة ازدهرت حضارة العرب. واقرأ ما كتبه ول ديورانت في كتابه "قصة الحضارة" تجده يتحدث عن وجه مشرق للعلم والمعرفة إبان العصر الذهبي للحضارة الإسلامية.

التطوير عملية ديناميكية حلقاتها متصله بعضها بالبعض الآخر. تبدأ بالإيمان بضرورة التغيير، يتلوها دراسة تجارب الآخرين، ثم تأتي مرحلة صياغة الأهداف ووضع الخطط والبرامج، ثم يأتي التنفيذ.. ولا ننسى المتابعة والتقويم.

الإيمان بضرورة التغيير:

نحن في حاجة إلى التعليم الذي يتماشى مع روح العصر ويواجه تحديات المستقبل. التعليم الذي لا ينفصل البتة عن العقيدة

والأخلاق. التعليم الذي يهيئنا لأن نكون أعزاء أقوياء. نصنع بأنفسنا غذاءنا وسلاحنا ووسائط النقل وتقنيات الاتصالات. لن نستغني عمن حولنا.. فالعالم أضحى قرية صغيرة.. ولكن علينا أن نعطي بقدر ما نأخذ، لا أن نظل عالة على غيرنا في ضرورات الحياة.

قريب لي كان يرى أن من رحمة الله علينا أن خلق لنا الأمم الغربية لتزودنا بما نأكل وما نلبس وما نركب. وغاب عنه أن الله يريد لنا العزة والقوة والمنعة ويأمرنا بها أمراً.

الآراء التي أطرحها في هذا الفصل تدعو إلى تطوير مناهج التعليم وأساليبه وإدارته. هذا التطوير يجب أن يأتي عن قناعة وإيمان منا، ولا يفرض علينا من الآخرين. هي آراء يطرحها إنسان مخلص لأمته محب لها، آراء تمخضت عن مزيج من التجربة والتأمل والتفاعل مع الأحداث. كل الذي أرجوه أن تحظى هذه الآراء بالحوار والمناقشة. قد يقبل بعضها ويرفض البعض الآخر. ولا بأس في ذلك، فاختلاف الرأي لا يفسد للود قضية.

التطوير الهادف يستدعي أن نبحث عن حلول غير تقليدية. وأن نتقبلها إذا ما تبدى لنا صوابها. مادامت في إطار الخلق والدين.

أم ترانا نخشى التغيير؟

لا يقول بذلك عاقل. فالتوجيه الرباني يقول لنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

يقول الشهيد سيد قطب في تعليقه على هذه الآية الكريمة في ظلال القرآن: "إن الله لا يغير نعمة أو بؤساً، ولا يغير عزاً ولا ذلة، ولا يغير مكانة أو مهانة، إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم، فيغير الله ما بهم وفق ماصارت إليه نفوسهم وأعمالهم. وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون".

أم ترانا نخاف مما قد تحمله التجربة من احتمالات الخطأ والصواب؟

لا وألف لا.. فالانسان لم يتطور من عهد الغابة إلى عصر الفضاء إلا من خلال سلسلة من التجارب صاحبها الكثير من قصص النجاح والفشل.

الاستفادة من تجارب الآخرين:

تطوير التعليم قضية مركبة لا يمكن فصلها عن التنمية الاجتماعية والاقتصادية للأمة، أذكر عندما تولى الصديق الأستاذ إياد مدني وزارة الحج رجوته أن يعيد إلينا الحج أيام زمان.. قال بكل سرور.. ولكن هات لنا أيام زمان.

لا يمكن للتعليم في أي مجتمع أن يتطور ما لم يستفد من تجارب الآخرين.

أدعو إلى قراءة ماكتبه انجيمار فيجرلند في كتابه "التعليم وتطوير الأمة".[١٦]

أدعو إلى التعرف عن قرب على تجربة الشيخ سعيد لوتاه في دبي، حيث ابتدع نظاماً جريئاً في التعليم. اختصر فيه سنوات الدارسة وهيأ الطالب لممارسة الحياة في سن مبكرة.

تقرير البنك الدولي بعنوان "بناء مجتمعات المعرفة" الصادر في عام ٢٠٠٣م يسجل تجربة البلدان التي خطت خطوات إيجابية في تصحيح مسار التعليم وأثر ذلك على التنمية الاقتصادية والاجتماعية فيها، ويمدنا بقائمة من الدراسات التي نشرت في مجال العلاقة بين التعليم والتنمية.[٦]

في كتابها "ثورة في التعليم: من المدرسة إلى العمل"[٧] تنقلنا المؤلفة لين أولسون إلى فكرة برزت قبل ربع قرن ويتنامى مفهومها في كثير من المجتمعات، تلك هي ربط التعليم بالعمل وتهيئة الطالب وهو على مقاعد الدراسة لممارسة الحياة العملية (هذا مافعله الشيخ سعيد لوتاه في دبي). وتشير المؤلفة إلى تجارب عديدة قامت بها مدارس ومؤسسات تعليمية في ولايات بوسطن وبنسلفانيا وأوريجون وكاليفورنيا وديلوير. العودة إلى مثل هذه التجارب سوف نثرى بها ونحن متجهون إلى تطوير التعليم.

لو جاز لي أن أتصفح في عجالة ما جاء في كتاب "التعليم والعالم العربي"[١٧]، لتوقفت طويلاً عند الفصل الذي يتحدث عن

المدرس. المدرس والمناهج هما حجر الزاوية في أي تطوير حقيقي للتعليم. المشكلة هي أن أهم مرحلة في حياة الإنسان والتي يحتاج فيها إلى المعلم الرشيد الواعي القدير الذي يحظى باحترام نفسه واحترام المجتمع هي مرحلة الطفولة المبكرة. والذي نجده في مجتمعاتنا هو أن أستاذ الجامعة يحظى بأعلى درجات التقدير في المجتمع بينما لا يحظى مدرس الابتدائية -بالرغم من الأهمية البالغة لدوره- بقدر كافٍ من الإعداد المهني أو المكانة الاجتماعية أو الدخل المادي. تناقض غريب إذا لم نتداركه ونتدارك أسبابه قد يؤثر على أي محاولة حقيقية للتطوير.

يروق لي أحياناً أن أُحَدّث أبنائي وأحفادي كيف كان مدرس الابتدائية قبل أكثر من نصف قرن يحظى باحترام تلاميذه واحترام المجتمع من حوله. كنا إذا شاهدنا مدرسنا قادماً علينا من بعيد ونحن نلعب الكرة الشراب في الحارة توقفنا عن اللعب مهابة منه. ثم سارعنا إليه نقبل يده.. أين منا تلك الأيام؟ وأذكر عندما التحقت بمعهد جوته في ألمانيا لدراسة اللغة أن مدرسينا في الشهور الأولى من الدراسة كانوا قمة في المستوى الثقافي والتعليمي والدربة على التعامل مع الطلاب.

قامت الرابطة الأمريكية لمديري المدارس[٨] باستطلاع آراء خمسة وخمسين من الخبراء البارزين في أمريكا في مختلف

التخصصات التربوية والنفسية والاجتماعية حول بعض القضايا المتصلة بالتعليم من بينها:

- ما الذي يجب أن نفعله لإعداد الأطفال للقرن الواحد والعشرين؟
- ما أنماط السلوك والمهارات التي يجب أن تتوافر لإنسان الغد؟
- كيف يستطيع المربون والمواطنون والآباء ورجال الأعمال والحكومة أن يسهموا في نجاح الأطفال في المستقبل.

من بين التوصيات التي قدمها الخبراء تبرز قضية محورية وهي أنه بالرغم من الأهمية المطلقة لتطوير التعليم في مجالات العلوم والآداب والرياضيات واللغة إلا أنه يجب التركيز على الجانب الأخلاقي في تربية التلاميذ.

يذكرنا عبدالعزيز السنبل في كتابه "التربية والتعليم في الوطن العربي"[٩] بأن مشكلة التعليم في العالم العربي هي أولاً وقبل كل شيء مشكلة جودة، وأن التعليم لا يمكن أن يتطور إلا إذا واكبه تطوير اجتماعي واقتصادي وثقافي في المجتمع.

تحديد الأهداف.. لماذا؟

في الخمسينيات الميلادية من القرن الماضي كانت ماليزيا متخلفة اقتصادياً، تعتمد أساساً على تصدير المطاط. أجمع أهل الحل والعقد فيها على أن ينتقلوا بها إلى مرحلة الاقتصاد المبني

على التكنولوجيا (Technology Based Economy). وفي الثمانينيات الميلادية قرروا أن ينتقلوا بها إلى مرحلة الاقتصاد المبني على المعرفة (Knowledge Based Economy).

بدؤوا أول ما بدؤوا بتحديد الأهداف ووضعوا برنامجاً للعمل قسموه إلى مراحل.

أنشؤوا طريق الوسائط المتعددة (ملتيميديا سوبر كوريدور) في ضاحية سايبرجايا على مساحة ٧٥٠ كيلومتر مربع جنوب كوالامبور ليكون مركزاً لصناعة وتطوير تقنيات الاتصال. افتتحوا جامعة الملتيميديا واستقطبوا كبريات الشركات العالمية للمشاركة في المشروع. ربطوا جميع المكاتب والشركات بشبكة من الفيبر جلاس. وضعوا النظم واللوائح لتتماشى مع الهدف الكبير الذي خططوا له. وضخوا في المشروع نحو ١٠ بلايين دولار.

واليوم بعد ربع قرن أصبح طريق المعرفة أكثر اتساعاً وأبعد مدى. وهم يخططون الآن لكي تصبح ماليزيا كلها طريقاً للمعرفة. وصلوا إلى ما وصلوا إليه بتحديد الهدف والسعي حثيثاً لبلوغه.

في الخمسينيات الميلادية كانت كوريا وأوغندا في مستوى اقتصادي واحد. وفي غضون نصف قرن بلغ اقتصاد كوريا درجة عالية من التقدم والنمو وظلت أوغندا كما هي (شكل ٣). كيف وصلت كوريا إلى ما وصلت إليه؟ بتحديد الهدف والسعي الحثيث للوصول إليه.

شكل (٣) المعرفة ودورها في اختلاف الدخل بين البلدان: مثال غانا وجمهورية كوريا (١٩٦٥ -١٩٩٠)

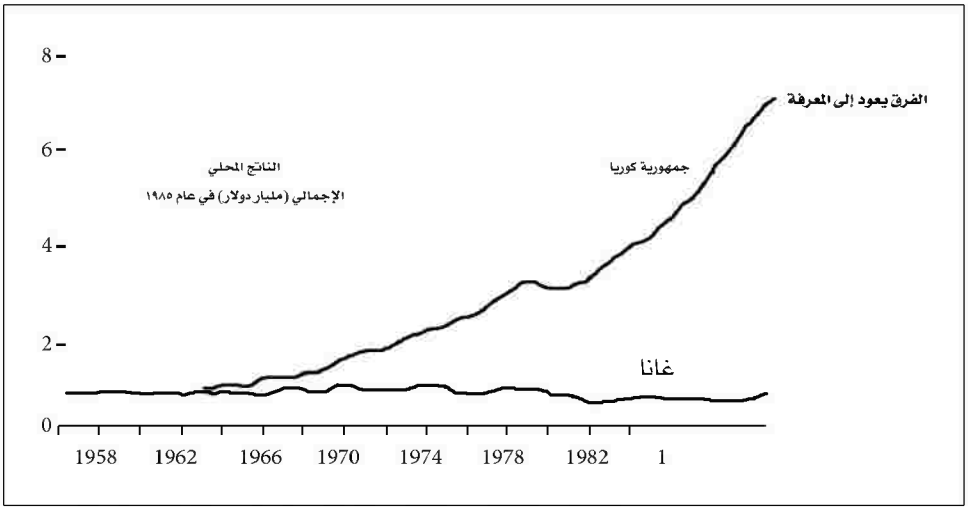

المصدر: نقلا بتصرف من كتاب بناء مجتمعات المعرفة: التحديات الجديدة التي تواجه التعليم العالي. منشورات البنك الدولي ٢٠٠٣

في الخمسينيات الميلادية من القرن الماضي اهتزت أمريكا لخبر صعود جاجارين إلى الفضاء ووعدهم الرئيس كيندي بأنه بعد ١٠ سنوات ستكون أمريكا أول من يصل إلى القمر، وتحقق الوعد. نجحوا بأن حددوا الهدف وسعوا إليه.

في المملكة العربية السعودية اتخذ قرار بأن تصبح الجبيل وينبع على سواحل البحر الأحمر والخليج العربي أكبر مدينتين صناعيتين في الشرق الأوسط. وفي غضون سنوات تحقق الحلم. حددت الهدف ووظفت للوصول إليه كل الإمكانات.

في زيارة لي إلى جامعة مانشستر في بريطانيا قيل لي: إن أمامنا هدفاً نسعى إليه وهو أن ننتقل من المرتبة الأربعين بين جامعات العالم إلى المرتبة الخامسة عشرة في غضون ١٠ سنوات. حددوا هدفهم ويسعون جادين إلى تحقيقه.

لا أريد أن أنهي حديثي عن أهمية تحديد الهدف والسعي حثيثاً إليه قبل أن أنقل إليكم قصة الطبيب الألماني إلبرت شفايزر(١٨٧٥-١٩٦٥) الذي حصل على جائزة نوبل للسلام. كان عازفاً على الأورج في الكنيسة. رغب أن يغير نمط حياته. ولكن كيف؟ لم تتضح له الرؤية. اتخذ قراراً. عندما يبلغ الثلاثين من العمر سيحدد ما يريد. وعندما بلغها قرر أن يدرس الطب وأن يهيئ نفسه لمعالجة المرضى في إفريقيا. تم له ما أراد. درس الطب

وذهب إلى إفريقيا حيث أمضى عشرين عاماً في الجابون يعالج المجذومين.

هذه تجربة فرد تضع يدنا على المسار الطبيعي لعملية التغيير. الاعتراف بوجود المشكلة. دراسة الموقف. تحديد الهدف. والسعي حثيثاً للوصول إليه.

من الذي يصوغ الهدف؟

الهدف من التعليم يجب أن تصوغه مجموعة من الاختصاصيين لهم خبرة بالحياة وبصر بشؤونها. اختصاصيون في مجالات التربية والاقتصاد والاجتماع والعلوم والصناعة والبيئة والفكر يضمهم مجلس أعلى لتطوير التعليم يرتبط مباشرة برئيس الدولة. أكاد أرى هذا المجلس رأي العين ينشأ في كل بلد عربي. أعضاؤه متفرغون لهدف واحد لا يشغلهم عنه شاغل. تطوير التعليم. يصوغون أهدافه ويضعون برامجه ويتابعون تنفيذها.

الهدف:

دعونا نضع هدفاً افتراضياً آخذين في الاعتبار سلم التنمية البشرية كما جاء في تقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي لعام ٢٠٠٥م. لنفترض جدلاً أن دولة عربية ما (وأرجو أن تكون أكثر من دولة) قررت أن ترتقي في سلم التنمية البشرية مقدار ٢٥ درجة في

غضون ٢٥ سنة. أي في كل سنة درجة. هدف نبيل وواضح ومرتبط بحقبة زمنية معينة ويستحق أن تحشد له القوى.

قبل أن نتحرك خطوة أخرى في صياغة الهدف علينا أن نتفق على ثلاثة أمور:

١- التطوير الاقتصادي والاجتماعي قضية شمولية، وتطوير التعليم جزء لا يتجزأ منها.

٢- تطوير التعليم مسؤولية مشتركة بين قطاعات التعليم والاقتصاد والصحة والبيئة والإعلام والبحث العلمي وغيرها.

٣- التخطيط العلمي يجب أن يكون مقنناً، قابلاً للقياس، مصوغاً في برامج محددة وبجداول زمنية.

أخشى ما أخشاه ونحن نخطط أن نقع في أخطاء كثيراً ما تمارس، وبخاصة في البلدان النامية، مما ينتهي بالتخطيط العلمي إلى عمل مرتجل.

أخطاء كثيراً ما نمارسها:

أول هذه الأخطاء الخلط بين الأهداف والوسائل. من السهل أن نقول إن هدفنا هو بناء ألف مدرسة أو إنشاء عشر جامعات أو مضاعفة ميزانية التعليم. بيد أن هذه ليست أهدافاً بقدر ما هي وسائل. صياغة الأهداف أصعب من ذلك بكثير. قد يكون الهدف

الذي نسعى إليه هو أن تصبح واحدة أو أكثر من جامعاتنا في مصاف الجامعات الكبرى في العالم خلال ثلاثة عقود، أو أن نعيد ترتيبنا في سلم التنمية البشرية، أو أن يجد ٩٠٪ من خريجي الثانوية العامة مقاعد للدراسة في الجامعات ومعاهد التدريب، أو أن يسجل ١٠٪ من خريجي جامعاتنا ابتكارات واختراعات جديدة.

ثاني هذه الأخطاء التي يجب أن نحذرها هو أن نعتمد ميزانية لإنشاء مشروع تعليمي ما، وننسى ميزانية التشغيل والصيانة. أو أن نعتمد للمشروع ميزانية ثم نقيدها بقيود من النظم واللوائح تعوق التنفيذ. أو أن لا يكون هناك جهاز قوي للمتابعة والتقويم يقول للمجتهد أحسنت ويكافئه على اجتهاده ويتصدى للمسيء والمقصر فيحاسبه على إساءته وتقصيره.

أكثر مايعتذر به المعتذرون عن عدم استكمال مشروع ما هو قصور التمويل عن تحقيق المراد. أو أن التمويل راعى تغطية التكاليف الرأسمالية، ولكنه نسي أو تناسى تمويل التشغيل أو الصيانة. وأقف قليلاً عند اللوائح والنظم عندما تقف حائلاً أمام التنفيذ فلها في النفس شجون.

كلفت في الثمانينات الميلادية بإنشاء كلية الطب في أبها، ورصدت وزارة المالية خمسة ملايين ريال للتخطيط للمشروع. وعين لي معالي وزير التعليم العالي موظفين اثنين لمساعدتي مالياً وإدارياً. مع

بداية المشروع طلبا مني أن أضع بنوداً لصرف الميزانية. قاومت وأخيراً استجبت فهذا منطق النظام. وضعت بنود الميزانية وختم عليها بالموافقة.

بعد أسابيع اكتشفت أن البنود التي وضعتها بيدي غدت عائقاً أمامي. فإنشاء كلية طب أمر يحتاج إلى الحركة والمرونة وإلى استقطاب خبراء وإلى وضع مناهج. والبنود مقيدة لا تسمح بالحركة. عدت إلى وزير المالية ليعفيني من قيد البنود وأعفاني منها. رجعت إلى مساعديّ لأزف لهما بشرى الموافقة. فكانت الإجابة.. طيب دعنا إذاً نضع بنوداً للميزانية! هذه العقلية النمطية التقليدية يجب أن تتغير بما يكفل الحركة ويحقق في نفس الوقت أمانة الصرف.

أمثلة أخرى تحضرني. ترصد ميزانية في بلد ما لمكافحة وباء الملاريا. تشترى الأجهزة والمعدات والمواد الكيميائية ويستقطب الخبراء. ويأتي حماة النظام واللوائح فيفتون بعدم جواز صرف مكافآت للعمال خارج وقت الدوام. يتوقف العمال عن رش المبيدات بعد الساعة الثانية ظهراً. ويجمع البعوض أمره على أن يتناسل ويتكاثر ويشن هجومه على عباد الله الآمنين وعمال الرش يتفرجون!

رأيت مدارس صرف على تشييدها ملايين الريالات، وتفتقر إلى وسائل الإيضاح وقيمتها ألوف.

أذكر جانباً آخر من الصورة يتمثل في لامركزية القرار. عندما كنت أطلب العلم في أمريكا خصصت لي الجامعة ٥٠,٠٠٠ دولار لشراء معدات وأجهزة للبحث الميداني الذي سأجريه في المملكة. كان هذا المبلغ آنذاك يساوي عشرة أضعافه بحساب اليوم. وكان أمر الصرف بيد رئيس القسم وليس عميد الكلية أو مدير الجامعة. عندما جاء أوان صرف المبلغ كان أساتذة القسم في إجازة الصيف ينوب عنهم طالب أمريكي في نفس مرحلتي الدراسية، هو الذي وقع أوامر الصرف لشراء الأجهزة والمعدات!

دعاني صديقي عميد كلية طب ماسترخت إلى الغداء. ونحن في المطعم أشار إلى مبنى يقوم عن بعد. قال: أتذكره؟ قلت: أليس هذا مبنى كلية الطب القديم الذي زرتك فيه منذ عام مضى؟ قال نعم. بعد أن انتقلنا منه إلى مبنانا الجديد بعته لليابانيين. قلت: أنت بعته؟ وكيف؟ قال: تقدم لي مجموعة من اليابانيين بالرغبة في شرائه وفي خلال أسبوعين أتممت الصفقة وسلمت قيمته إلى الجامعة!

من قرأ منكم ما كتبه الدكتور أحمد زويل صاحب جائزة نوبل يدرك أن الطريق إلى نوبل ليس بالعلم وحده وإنما أيضاً بما يصاحبه من تنظيم وإدارة.

خطأ آخر كثيراً ما نقع فيه ذلك هو غياب المحاسبة التي تنتهي بمكافأة المحسن ومعاقبة المسيء.

مع بداية نهضة كوريا الاقتصادية اتخذ مبدأ التفويض ثم المحاسبة أسلوباً لا محيد عنه. تضع المؤسسة الحكومية خططها وبرامجها، وتحدد لنفسها جداول زمنية، وترصد لها الميزانية. ثم يبدأ التنفيذ ويبدأ معه محاسبة المسؤولين عما حققوه من نتائج.

مشروعين صحيين زرتهما أشير إليهما في معرض الحديث عن دور التخطيط السليم في نجاح المشاريع أو فشلها. أحدهما نجح والآخر فشل.. والأمر في مجمله يعود إلى الإدارة. في الستينات الميلادية من القرن الماضي اتضح للمخططين الصحيين في إيران أن الأطباء حديثي التخرج يسعون إلى البقاء في المدن الرئيسة مثل طهران وشيراز وأصفهان محجمين عن الذهاب إلى الريف حيث يعيش ٨٠٪ من السكان. خطط المسؤولون لمشروع رائد في قرى رضائية غرب أذربيجان. قاموا بتدريب بعض أبناء وبنات القرى على تقديم الخدمات الصحية للسكان تحت إشراف عدد محدود من الأطباء. بعد سنوات من تطبيق المشروع ارتفع مستوى الصحة وانخفضت معدلات الأمراض والوفيات في منطقة المشروع. طبقت الفكرة في مناطق أخرى في إيران، وأصبح المشروع مزاراً للمخططين الصحيين من أنحاء العالم. السر وراء نجاحه التخطيط العلمي، والإدارة الجيدة، والمتابعة والتقويم.

المشروع الآخر قام به أساتذة من جامعة جونز هوبكنز بأمريكا في قرى نارنجوال بالهند. كان هدف المشروع هو تهيئة الأم لمتابعة نمو طفلها، وتدريب العاملين الصحيين على أسس التغذية ومكافحة الأمراض المعدية والإسهال لدى الأطفال. بشائر النجاح كانت تدعو إلى التفاؤل إلا أن المشروع أجهض بانقطاع الدعم المالي عنه. وعندما انسحب الخبراء الأمريكيون من المشروع لم تكن هناك قاعدة قوية من الإدارة المحلية تضمن استمراريته فتوقف.

والآن لنمض معاً في مشروع رائد:

دعونا نفكر معاً في مشروع تعليمي رائد (Pilot project).

لاشك أنه عند تطبيق أي فكرة جديدة يستحسن أن تبدأ بداية محدودة قبل أن تتسع وتمتد. البداية المحدودة تساعد على التخطيط السليم والمتابعة والتقويم. ومن ثم فالمشروع الرائد يجب أن لا يكون صغيراً بحيث يصعب معه تكرار التجربة، ولا كبيراً مما قد يكون عقبة أمام المتابعة والتقويم، وإنما هو بين بين.

دعونا نفترض أن دولة عربية تبنت فكرة مشروع رائد يهدف إلى تطوير التعليم الثانوي في مجموعة محدودة من المدارس، تمهيداً لنشره وتعميمه في عدد أكبر من المدارس. وإذا ما تعاونت أكثر من دولة على هذا المشروع فذاك أدعى لإثراء التجربة.

خلاصة المشروع هو أن تضع الدولة الإطار العام للمنهج التعليمي لمرحلة الثانوية العامة. والذي يحدد ما يتوقع من حامل

الثانوية العامة أن يحصل عليه من علم ومعرفة وخبرة عند تخرجه من المدرسة.

يترك التنفيذ للمدرسة ويعطى لها حرية الحركة والاختيار بعد أن يهيأ مسؤولوها لهذه المهمة ويحاسبوا على النتائج.

دعونا نتصور معاً الإطار العام لخطة العمل:

١- تحديد الأهداف.

٢- صياغة المناهج التعليمية.

٣- وضع النظام التعليمي والإداري والمالي بما يضمن الإبداع ويكفل الانضباط.

٤- وضع نظام لضمان الجودة.

٥- تحديد مواصفات التعليم النشط ومقوماته.

٦- اختيار المسؤولين الذين سيتولون تنفيذ المشروع وتهيئتهم لتحمل المسؤولية.

٧- التنسيق مع القطاعات الحكومية والأهلية.

٨- إعداد ميزانية المشروع واعتمادها، وتحديد الجدول الزمني.

٩- التنفيذ.

١٠- المتابعة والتقويم والمحاسبة.

عشرة عناصر يخطط لها وتنفذ بأسلوب مرن محكم وبجدول زمني واضح المعالم. ترصد لها الميزانية الكافية، ويتصدى لتخطيطها وتنفيذها ومتابعتها وتقويمها رجال ونساء مشهود لهم بالأمانة والثقة ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦).

نأتي لبعض هذه العناصر بشيء من التوضيح. وليكن ذلك مدعاة للنقاش:

● **تحديد الأهداف:**

أقترح صياغة مبدئية للهدف تكون كالتالي: "تنفيذ مشروع رائد في ١٠٠ مدرسة ثانوية، لتطوير التعليم بما يتلاءم مع احتياجات المجتمع الآنية والمستقبلية، تمهيداً لنشره على مستوى الدولة. مما يسهم في الارتفاع ٢٥ درجة في سلم التنمية البشرية خلال ٢٥عاماً. يراعى في التخطيط أن يكون مركزياً بالتشاور مع جميع الأطراف المعنية. على أن يكون التنفيذ مسؤولية المدرسة. حيث تلتزم المدرسة بالإطار العام الذي تضعه الدولة وتعطي كافة الصلاحيات للتنفيذ. هذه الصياغة قابلة للتعديل.

● **اختيار المسؤولين عن المشروع:**

في أي مدرسة توجد خمسة عناصر قيادية تتمثل في المدير ومساعدين أحدهما تربوي والآخر إداري بالإضافة إلى مشرفين تربويين. نحن إذاً نتحدث عن ٥٠٠ قيادي

يتولون أمر ١٠٠ مدرسة. يختار هؤلاء القياديون حسب مواصفات محددة. ويعمل لهم برنامج تأهيلي لبضعة شهور يشمل أساسيات الإدارة وصياغة المناهج التعليمية وتقويمها وطرق التعلم ومبادئ علم النفس والسلوك. يهيأ هؤلاء القادة للأدوار التي سيقومون بها، ويعطون الصلاحيات الكاملة لتنفيذ المشروع. على أن يحاسبوا على النتائج.

● **اختيار المدارس:**

تختار ١٠٠ مدرسة من بين المدارس القائمة. وتوضع خطة لتطويرها بما في ذلك تهيئة فصولها ومعاملها لتطبيق أسلوب التعليم النشط. المطلوب ليس البذخ والإسراف بقدر ما هو الأناقة والجمال والفاعلية. توضع ميزانية لكل مدرسة لتطويرها وتشغيلها لفترة خمس سنوات.

● **إدارة المشروع:**

من الذي سيدير هذه المدارس؟ هل هي الدولة أم القطاع الأهلي؟ وما دمنا في مرحلة التجريب لماذا لانعطي الفرصة للقطاعين الحكومي والأهلي لإدارة المشروع مناصفة بمعنى أن تدير وزارة التربية (متمثلة في مدير المدرسة) ٥٠ مدرسة، ويدير القطاع الأهلي ٥٠ مدرسة، ولنتعلم من التجربة.

كلمة يجب أن تقال.. القطاع الأهلي أثبت وجوده في إدارة المؤسسات سواءً كانت تعليمية أو صحية أو اجتماعية، ذلك أنه أقدر على الترشيد والمرونة والحركة، شريطة أن توضع له الضوابط التي تضمن حسن الأداء وتمنع الاستغلال، ويحاسب على النتائج.

● **حساب التكاليف:**

وزارة التربية والتعليم في أي دولة لها ميزانية سنوية لو قسمت على عدد الطلاب الدراسين في مدارسها لتوصلنا إلى معدل ما يصرف على الطالب في السنة. يحسب لكل مدرسة في المشروع الرائد نصيبها من الميزانية حسب عدد طلابها. وإذا ما كانت خطتنا تتضمن زيادة نسبة ما يصرف على التعليم من الدخل العام فلنضع ذلك في حسابنا.

توضع الميزانية المخصصة لكل مدرسة تحت تصرف إدارة المدرسة. المدرسة هي التي توظف المدرسين والإداريين والجهاز المساند، وتختار المواد التعليمية، وتقرر طرق التدريس ثم تحاسب على النتائج.

● **ضمان الجودة:**

توكل المسؤوليه لإدارة المدرسة لتنفيذ خططها وبرامجها، وتعطى صلاحية الصرف من الميزانية المعتمدة لها. ولكن هناك

مبدأ يقول: "لا تفويض دون محاسبة". عدة وسائل يمكن اتباعها للمتابعة والتقويم والمحاسبة. نقتصر منها على أربع:

أ / النظام المحاسبي.

ب / مجلس الإدارة.

ج / مجلس الأمناء.

د / امتحان الدولة.

أ/ النظام المحاسبي:

سواء كانت الإدارة في يد القطاع الحكومي أو الأهلي، لا بد من وجود نظام محاسبي دقيق يضمن لنا أن ما يصرف من مال يصرف في مكانه الصحيح. هناك من يقول: إن المحاسبة تأتي قبل الصرف بيد أن هذا النمط من المحاسبة يفرض قيوداً على الحركة والمرونة والإبداع. أنا أميل إلى المحاسبة بعد الصرف. يقوم بها أكثر من جهه فهناك المراقب الداخلي والمراقب الخارجي والمحاسب القانوني.

ب / مجلس الإدارة:

يتكون في كل مدرسة مجلس إدارة من المدير ومساعديه وفئة مختارة من المعلمين والإداريين يضاف إليهم أفراد من المجتمع. مهمة المجلس وضع سياسة المدرسة ومتابعة تنفيذها. وليكن الأمر شورى بين أعضاء المجلس.

ج / مجلس الأمناء:

يتكون مجلس أمناء لكل مدرسة من بضعة من وجهاء المجتمع وأصحاب الرأي والحكمة وأولياء أمور الطلاب. مهمة المجلس متابعة مسيرة التعليم في المدرسة والتحقق من ملاءمتها مع الأهداف. يجتمع المجلس مرات محدودة في السنة. ويرفع تقاريره إلى جهة عليا قد تكون الوزارة.

د / امتحان الدولة:

لا أرى وسيلة لضمان مخرجات التعليم أفضل من أن تعقد الدولة امتحاناً شاملاً لخريجي المرحلة الثانوية. من يجتازه يعطى رخصة العمل أو يسمح له بالمضي في دراسته العليا إذا شاء.

في مشروعنا هذا المقترح يترك لكل مدرسة أن تعقد امتحاناتها بما في ذلك امتحان الثانوية العامة وتستعين في ذلك بالمركز الوطني لتطوير التعليم الذي تنشئه الدولة (يأتي الحديث عنه لاحقاً). للمدرسة أن تختار من هذا المركز ما تشاء من مواد التعليم والمناهج الدراسية ووسائل الإيضاح والامتحانات. بهذا الأسلوب نعطي الفرصة لكل مدرسة أن تبدع وتنافس وتتفوق داخل الإطار العام لخطة التعليم. المدرسة تعرف مسبقاً أن خريجيها لن يحصلوا على رخصة للعمل أو يحظوا بفرصة لمواصلة دراستهم الجامعية إلا إذا اجتازوا امتحان الدولة.

امتحان الدولة يصوغه خبراء في التربية والتعليم والسلوك. هذا الامتحان يقيس قدرات الطالب المختلفة، معلوماته العامة، قدرته على التعبير، إجادته للغات، استعداده للتفكير والاستنباط، ملكة الإبداع لديه، يطبق امتحان الدولة على جميع خريجي الثانوية العامة من المدارس الحكومية والأهلية على السواء.

- **العلاقة بين الوزارة والمدرسة:**

يوقع عقد بين وزارة التربية والمدرسة لتنفيذ المشروع الرائد. ينص على التالي:

أ - تقوم الوزارة بتمويل رسوم الطلاب. وإذا أرادت المدرسة أن تزيد في نشاطاتها وبرامجها وبالتالي أن ترفع رسوم الدراسة بها ورضى أولياء أمور الطلاب بذلك فليدفعوا هم هذه الزيادة استجابة لقانون العرض والطلب.

ب - تقوم إدارة المدرسة بتشغيل المدرسة بما يكفل لها حرية الحركة والإبداع ملتزمة في ذلك بالأهداف العامة التي وضعتها الوزارة.

ت - للمدرسة حرية اختيار المواد التعليمية ووسائل الإيضاح وطرق التدريس ضمن الإطار العام المتفق عليه لتطوير التعليم.

ث - يخضع خريجو المدرسة لامتحان الدولة. من يجتازه يصرح له بالعمل أو باستكمال دراسته الجامعية.

● أسلوب التعليم:

أسلوب التعليم الذي يمارس فيه الطالب البحث عن المعلومة والتفكير فيها والتفاعل معها أجدى من الأسلوب الذي يلقي فيه الأستاذ محاضرته والطالب من ورائه يسجل ويدون ما يلقى إليه من علم. لعل من المناسب ان أذكر بعض المواقف التي لها دلالة.

وأنا بعد طالب في السنة الإعدادية في كلية الطب كان يدرسنا مادة العلوم أستاذ ينشر أمامه كراسة يبدو عليها البلى من كثرة الاستعمال، يملي علينا درسه ونحن من ورائه نكتب ما يمليه. وكنتيجة حتمية لهذا النمط من التعليم أذكر أني عندما ذهبت للتدريب الصيفي في مستشفى أرامكو طلب مني المشرف أن أكتب بحثاً عن حالة مرضية. لم أعرف كيف أكتب البحث. لأني لم أهيأ لذلك.

دُعيت ممتحناً خارجياً في كلية الطب بإحدى جامعاتنا. تبدى لي أن الطلاب حافظون لدروسهم دونما تفكير. غيرت أسلوبي في الامتحان وأخذت أطرح على الطلاب حالة طفل مصاب بالبلهارسيا تبول في البانيو. والسؤال هو: ما احتمال أن تنتقل عدوى المرض إلى من استعمل البانيو من بعده؟ جاءت الإجابات متفاوته ١٠٪، ٢٠٪ ٣٠ ٪. نسي الجميع أن البلهارسيا لا تنتقل إلا إذا كان هناك قوقع وسيط يحمل جرثومتها. لقد استظهر الطلاب مادة الدرس ولم يفكروا فيها أو يتفاعلوا معها.

التعليم الإبداعي:

التعليم الإبداعي (Innovative Education) بدأت إرهاصاته في أمريكا وكندا منذ نصف قرن. في ١٩٨١م شاركت في ندوة عقدت في شيكاغو عن التعليم الطبي الحديث. جمعونا في غرفة تفصلها عن الفصل الدراسي نافذة زجاجية. الفصل يضم ٢٠ طالباً. يدخل عليهم تباعاً في كل ساعتين مدرس. طلب منا تقويم هؤلاء المدرسين. ماذا تعتقدون كان معيار المعلم الجيد؟ هو المعلم الذي ينسى طلابه وجوده بينهم. مهمته أن يتدخل إذا اقتضى الأمر لإعادة الحوار إلى مجراه أو الإشارة إلى مصدر من مصادر المعلومات وليس إعطاء المعلومة. الطلاب أنفسهم يحضرون المادة التعليمية ويتحاورون حولها ويحددون الدور الذي على كل واحد منهم أن يقوم به لاستكمال البحث.

أصبحنا اليوم نتحدث عن التعليم النشط، والتعليم الإلكتروني، والتعليم عن طريق حل المشكلات، والتعليم التفاعلي. هذه الأنماط من التعليم أصبح يساعد عليها التقنيات الحديثة بما في ذلك الإنترنت والفضائيات. لا يعني هذا إلغاء المحاضرات فهي مكملة للعملية التعليمية وجزء لا يتجزأ منها، ولكنها ليست الأساس.

توقفت عند هذه الآية الكريمة "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة.. الآية" ورجعت إلى أقوال بعض المفسرين فيها. يقول الشيخ

عبدالرحمن بن ناصر السعدي: "فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات والبنادق والطيارات الجوية والمراكب البرية والبحرية والقلاع والخنادق وآلات الدفاع والرأي والسياسة التي يتقدم بها المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم". ويردف قائلاً: "حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة وجب ذلك لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب".

التعليم الذاتي والحوار:

هذا هو الطبيب العربي موفق الدين عبداللطيف البغدادي يرسي قواعد العلاقة بين الطالب وأستاذه: ولو كان الأستاذ ناقصاً فخذ عنه ما عنده، حتى تجد أكمل منه، وعليك بتعظيمه وترحيبه، وينبغي أن تعرض خواطرك على العلماء وعلى تصانيفهم، وتتثبت ولا تعجل، ومن لم يعرق جنبه إلى أبواب العلماء لم يعرف الفضيلة ولم يبجله الناس، ومن لم يتحمل ألم التعلم لم يذق لذة العلم، ومن لم يكدح لم يفلح (ابن أبي أصيبعة. عيون الأبناء في طبقات الأطباء).

إذا كنت أدعو إلى أن يكون التعلم الذاتي الموجه والحوار ركيزتين أساسيتين من ركائز التعليم فإن تاريخنا مليء بأمثلة لمدارس كان التعليم الذاتي والحوار هما الأساس في التعليم.

تصور لنا مؤلفات كتاب معاصرين كيف كان التعليم في الجامع

الأزهر يعتمد على التعليم الذاتي. يقول أحمد أمين في كتابه "أيامي": وكانت العادة في الأزهر أن يعد الطالب درسه قبل أن يلقى أستاذه، فيقرؤه في الكتاب ويتفهمه. يعرف ما فهم وما لم يفهم وما وضح وما غمض ليتحرى موضع الغموض حين يفسر الأستاذ".

وفي المرات التي شرفت فيها بحضور جلسات في بيت الشيخ عبدالعزيز بن باز والشيخ محمد بن عثيمين وجدت في طابعها الحوار الذكي بين كل من الشيخين و مريديهم.

وهنا أقف لأقول إن الحفظ له دور يجب أن لا نغفله في بضعة من العلوم التي يتلقاها الفتى، وأضرب مثلاً لذلك حفظ آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه سلم ومختارات من الشعر العربي الرصين. فالحفظ هنا قمين بأن يقوم اللسان، ويثبت اللغة على أساس صحيح. على أن نعنى في الوقت نفسه بالفهم والتفكير والتحليل، ولنا في موقف بعض الصحابة قدوة حسنة فقد كانوا لاينتقلون من آية من القرآن الكريم إلى أخرى إلا بعد أن يحسنوا تدارسها.

حسن الاستفادة من علوم الغرب:

شيء أخر أريد أن أحذر منه ذلك هو التقليد الأعمى لكل ما يأتينا من الغرب، فكما أن علوم الغرب وآدابه ليست كلها شر فإنها أيضاً ليست كلها خير. وهنا يأتي دورنا في حسن الاختيار.

يعجبني في هذا الصدد كلمة للأستاذ محمد حسين هيكل جاءت في كتابه "محمد" يقول فيها: "في اعتقادي إن حضارة تجعل الحياة الاقتصادية أساساً وتقيم قواعد الخلق على أساس هذه الحياة الاقتصادية، ولا تقيم للعقيدة وزناً في الحياة العامة، تقصر على أن تمهد للإنسانية سبل سعادتها المنشودة. بل إن هذا التصوير للحياة لجدير أن يجر على الإنسانية ما تعانيه من محن في هذه العصور الأخيرة، جدير أن يجعل كل تفكير في وضع الحرب وفي توطيد أركان السلام في العالم قليل الجدوى غير مرجو الثمرة". ويستطرد فيقول: "تقوم الحضارة الإسلامية على أساس هو النقيض من أساس الحضارة الغربية، فهي تقوم على أساس روحي يدعو الإنسان إلى حسن إدراك صلته بالوجود ومكانه منه قبل كل شيء، فإذا بلغ من هذا الإدراك حد الإيمان، دعاه إيمانه إلى إدامة تهذيب نفسه وتطهير فؤاده، وإلى تغذية قلبه وعقله بالمبادئ السامية. مبادئ الإباء والأنفة والأخوة والمحبة والبر والتقوى".

أقول وبالله التوفيق: المعادلة الصعبة التي أرجو أن نهتدي إليها ونحن في سبيلنا إلى تطوير التعليم. هي كيف نتسنم الذرى بتلقي علوم الكون العصرية حتى نكون في موطن القوة. وفي الوقت نفسه نحافظ على مبادئ حضارتنا الإسلامية بما تمثله من أخوة ومحبة وبر وتقوى.

يقول الشيخ محمد عبده في تفسير الآية الكريمة ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة١٧١):

إن الآية صريحة في أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين، وإن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به. فمن ربى على التسليم بغير عقل والعمل ولو صالحاً بغير فقه فهو غير مؤمن. فليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان. بل القصد منه أن يرتقي عقله وترتقي نفسه بالعلم فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله. ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته".

● **لغة التعليم:**

تساءلت زمناً عن لغة التعليم في كليات الطب: هل من الأولى أن تكون اللغة العربية أم الإنجليزية. بعد بحث مستفيض وتجربة آمنت بأن الأفضل هو تدريس العلوم الطبية باللغة العربية. ذلك أدعى إلى سرعة القراءة وزيادة الاستيعاب، وربط الطب بواقع الحياة، وإذكاء الحوار بين الطلاب. شريطة أن يجيد الطالب لغة أجنبية أو أكثر. فاللغة ليست مجرد أداة للتعلم ولكنها وعاء للثقافة. هذا ما تفعله أمم متقدمة مثل الدول الإسكندنافية وغيرها من دول أوروبا. ولاستكمال بحثي حول الموضوع قمت بإجراء دراسة بين

طلاب الطب وأطباء الامتياز والأطباء المقيمين بجامعة الملك فيصل، وجدت من خلالها أن سرعة قراءة نص باللغة العربية تزيد عن سرعة قراءته باللغة الإنجليزية بنسبة ٤٣٪ وأن مدى استيعاب القارئ للنص باللغة العربية فاق مدى استيعابه لنفس النص باللغة الإنجليزية بنسبة ١٥٪، وبحساب البعدين الكمي (سرعة القراءة) والكيفي (مدى الاستيعاب) نجد أن نسبة التحسن في التحصيل العلمي تصل إلى ٦٤٪ بين أطباء الامتياز والأطباء المقيمين وإلى ٨٠٪ بين طلبة الطب. ولمن أراد أن يعرف المزيد عن نتائج الدراسة يمكنه العودة إلى كتابي"تجربتي في تعليم الطب باللغة العربية"(١٠).

إصرارنا على أن نعلم العلوم بلغة أجنبية لا يتقنها الطالب أمر يحد من سرعته في القراءة وقدرته على الاستيعاب، ولا يسهم كثيراً في درجة إجادته للغة. ولو ذكرت دولاً صغيرة في حجمها متقدمة في اقتصادها وعلومها وصناعتها مثل دول أوروبا تدرس العلوم الطبية والهندسية بلغاتها وتزود طلابها بلغة أجنبية أو أكثر.. لقيل لنا: هؤلاء غير.

هذا يؤكد ما ذهب إليه ابن خلدون في مقدمته: "إن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه. إما لنظرة بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس

لغلب طبيعي وإنما هو لكمال الغالب" وأيضاً ما ذهب إليه ابن حزم بقوله: "إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط أهلها ودخول غيرهم في مساكنهم".

• تقنيات التعليم:

لن نجد أفضل من بيل جيتس مؤسس الشركة العملاقة مايكروسوفت يأخذ بيدنا لنستشرف مستقبل تقنيات التعليم. يقول المؤلف في كتابه "طريق المستقبل"[١٨]: "إن تقنيات التعليم سوف تمكن الناس من أن يتعلموا بشكل أسهل وأمتع وأكثر فائدة عن ذي قبل داخل الفصول وخارجها". ويردف المؤلف بأن تطوير التعليم هو أفضل استثمار لأنه في النهاية سيفيد كل شرائح المجتمع.

وفي رحلة من رحلات الخيال العلمي إلى المستقبل يتوقع بيل جيتس أنه سيكون للكمبيوتر والإنترنت في القريب العاجل دور بارز ورئيس في التعليم في جميع مراحله، فتلميذ المدرسة الابتدائية سوف يستطيع من خلال الإنترنت أن يبحر في العالم الافتراضي (Virtual Reality) وأن يتفاعل مع تقنيات التمثيل (Simulation) والوسائط المتعددة (Multimedia). يستطيع التلميذ أن يدرس إيكولوجية الغابة أو يدير حديقة حيوانات أو يهندس مدينة ببيوتها وشوارعها ومتاجرها، أو يعقد محاكمة في محكمة، أو يدير مؤسسة تجارية. ستفتح له الإنترنت آفاقاً لا حدود لها

للاتصال بالحياة. ويختتم بيل جيتس بقوله: "ليس المهم حصول الطالب على المعلومة، وإنما المهم أن يتدرب على كيفية الوصول إليها، مما يهيئه لأن يكون متعلماً طيلة حياته.

الدكتور هشام شرابي كاتب مثير للجدل. قد تتفق معه أو تختلف، ولكنك لا تملك إلا أن تقف معه لتفكر. لابد لي من أن أنقل لك رأيه في أسلوبنا في التعليم: يقول في كتابه (مقدمات لدراسة المجتمع العربي): "يهدف التلقين كطريقة للتعليم إلى التسليم بما يتعلمه الفرد ويحفظه دون تساؤل أو تفهم، ومن ثم يصبح العقل أداة ترداد وحفظ، بدلاً من أن يكون وسيلة تحليل ومعرفة ونقد. أما ونحن إذ نعلم أطفالنا الطاعة وتنفيذ الأوامر وحسن التصرف، فإننا نكبل عقولهم ونحد من نموهم الذهني"[11].

- **إنشاء المركز الوطني لتطوير التعليم:**

تطوير التعليم يعني تطوير المعلم، والمنهج، والمواد التعليمية، وأسلوب التعليم، والنظم واللوائح.

ماذا لو أنشئ مركز وطني لتطوير التعليم يعنى بكل هذه الجوانب معاً؟ وليكن هناك تنسيق بين المركز ومؤسسات دولية مثل اليونسكو والبنك الدولي وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي.

دعونا نستعرض بعض نشاطات المركز الوطني لتطوير التعليم.

أ - عقد دورات تدريبية قصيرة ومتوسطة وطويلة الأجل للعاملين في حقل التعليم من مخططين ومنفذين ومعلمين وإداريين.

ب - إعداد المناهج التعليمية:

يحدد المنهج التعليمي ما الذي يتوقع أن يحصل عليه الطالب من دراسته لمادة من المواد علماً وسلوكاً. المنهج التعليمي للمواد المختلفة تضعه الوزارة ومن ثم يغدو الإطار العام الذي تلتزم به المدرسة، وعلى ضوئه تعد المواد التعليمية.

ج- إعداد المواد التعليمية:

في المدرسة الحديثة يسهم الطالب في تحديد الهدف من دراسته، ويدرب على الاستفادة من مصادر المعرفة. مصادر المعرفة قد تكون فصلاً في كتاب، أو مقالاً في صحيفة، أو موقعاً على الإنترنت، أو برنامجاً في الفضائيات، أو متحفاً للعلوم والفنون، أو هي كتاب الطبيعة.. ساحل البحر ومجرى النهر وأشجار الغابة ورمال الصحراء. زوجة صديقي عميد كلية طب إريزونا معلمة مادة الأحياء في مدرستها. أخذتنا إلى جولة في صحراء أريزونا شرحت لنا فيها كل زهرة ونبتة وشجرة صبار وقعت عليها أعيننا. هذا ما تفعله مع أطفال مدرستها، تأخذهم بين الحين والآخر إلى الطبيعة ليعيشوا فيها ويتدارسوها.

يضم المركز الوطني لتطوير التعليم ألواناً شتى من مصادر المعرفة. لسنا في حاجة إلى مخازن ضخمة لحفظها وإنما هي الشبكة العنكبوتية والإسطوانة المدمجة يمكن أن تجمع فيهما لو شئت مكتبتي الكونجرس الأمريكي والمتحف البريطاني معاً. هذه المواد التعليمية التي يحتويها المركز الوطني توضع تحت تصرف المعلمين ليستعينوا بها في إعداد محاضراتهم وحلقات النقاش التي يعقدونها. كما يستفيد منها التلاميذ في إعداد واجباتهم المدرسية.

د- وسائل الإيضاح:

الصورة قد تغني عن ألف كلمة. يقوم المركز الوطني بجمع وإعداد وسائل الإيضاح التعليمية من أفلام وإسطوانات مدمجة وصور وخرائط، وبثها إلى المدارس عبر الإنترنت أو من خلال الإسطوانات المدمجة ليستفيد منها المعلم في تحضير دروسه والطالب في دراسته.

هذا بعض من كل لما يمكن للمركز الوطني أن يقدمه لتطوير التعليم. يبدأ المركز صغيراً ثم يكبر. توضع له ميزانية للإنشاء والتشغيل لفترة خمس سنوات يبدأ بعدها في تمويل نفسه بنفسه مما يحصل عليه من رسوم رمزية لقاء خدماته.

هـ - الامتحانات:

كلية الطب في جامعة ماكماستر بكندا توقفت أو تكاد عن إعطاء المحاضرات وعقد الامتحانات. استبدلوا بالأولى حلقات

النقاش وبالثانية تقويم الطلاب لأنفسهم. سألت طلابي في كلية الطب عن رأيهم في هذا النموذج من التعليم.. رحبوا بفكرة حلقات النقاش بدلاً من المحاضرات، ولم يرحبوا بفكرة إلغاء الامتحانات.

لا بأس.. الامتحانات أصبحت في دمنا، جزء لا يتجزأ منا ومن نشأتنا وتربيتنا. يذكرني ذلك -مع الفارق- بما حدث مع بداية حركة تحرير العبيد في أمريكا. رفض كثير منهم الحرية لأنهم لم يألفوها بعد. من يريد الاطلاع على تجربة ماكماستر يجدها بالتفصيل على صفحات الإنترنت.

الطريقة التي تعقد بها الامتحانات في بلادنا لا تقيس قدرات الطالب الذهنية والإبداعية بقدر ما تقيس مقدار ما حفظه من معلومات.

لماذا لا يتصدى لوضع الامتحانات فريق من العلماء بخبرات متعددة في علم النفس والسلوك وقياس القدرات الذهنية إلى جانب الاختصاصيين في المادة العلمية. تودع هذه الامتحانات بعد صياغتها في المركز الوطني لتطوير التعليم، لتستفيد منها المدرسة في إعداد امتحاناتها، ويستفيد منها الطالب في قياس قدراته، وتستفيد منها الدولة في وضع امتحانها الشامل.

● **كلمة أخيرة:**

هنا لا بد لي من وقفة وأنا في نهاية الفصل، لأحذر من مجرد الظن بأننا باتخاذ إجراء أو آخر نكون قد حللنا مشكلة التعليم. لا بد لنا أن ندرك أمرين:

- تطوير التعليم له جوانب متعددة مترابطة ومتداخلة، تشمل تحديد الأهداف، وتطوير المنهج، والمدرس، والمدرسة، ووسائل التعليم، وعلاقة المدرسة بالبيت والمجتمع، والإصلاح الإداري، والمتابعة والتقويم والمحاسبة.
- تطوير التعليم يجب أن يكون ضمن منظومة تشمل التطوير الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والإصلاح الإداري.

● **نظرة مستقبلية:**

أنا شخصياً متفائل بتوجه الدول العربية مجتمعة ومتفرقة لتطوير التعليم ووضعه في إطاره الصحيح. لا أعني بذلك مجرد زيادة عدد المدارس والجامعات أو تعديل بعض النظم الإدارية والمالية أو تصحيح وضع المدرسين. كلها إجراءات ضرورية، ولكنها لا تعدو أن تكون وسائل. الذي أعنيه بتطوير التعليم هو وضع خطة بعيدة المدى لتطوير التعليم وربطه بتقدم الأمة ثقافياً واقتصادياً واجتماعياً.

السبب في تفاؤلي يعود إلى عدة أمور:

- العالم أصبح قرية واحدة، أحداثه متلاحقة ومتصلة يؤثر بعضها في البعض الآخر.
- أصبح من الواضح من تجارب الأمم أن لا مجال لأي تطوير اقتصادي واجتماعي وثقافي إلا بتطوير التعليم.
- الإرهاب والانفلات الأمني والاضطراب السياسي والتخلف الاقتصادي في أي مجتمع تعزي أسبابه أكثر ما تعزى إلى قصور التعليم عن تربية الإنسان الفاضل.

سبب آخر لتفاؤلي ما أجده منشوراً في بعض الصحف مما يشير إلى زيادة وعي الأمة بقضية التعليم:

- خطة خليجية لمناهج موحدة للتوسع في التقنية.
- إنشاء لجنة في السعودية لتوحيد سياسات العمل في تعليم البنين والبنات.
- خادم الحرمين الشريفين يوافق على أضخم برنامج للابتعاث الداخلي.
- رصد مليار ريال لتطوير مناهج التعليم.
- تطوير شامل للمناهج يركز على مهارات التفكير وقيم التسامح.

أتطلع وتتطلعون معي إلى اليوم الذي نصبح فيه في مقدمة الأمم اقتصاداً وصناعة وعلماً وثقافة. لنحقق ما يريده لنا الرحمن من تفوق وسمو ورفعة.

الخـلاصـة

أمامنا منحنى يجب علينا أن نجتازه

واخـترت تعبيـر المنحنى بدلاً من كلمـة طريق. وفي ذهني أنه طريق مـوصل، ولكنه غيـر تقليـدي. طريق فـيـه منحنيـات ودروب ونجـود ووهاد. وتعـترضـه عقـبـات. ولكن يمكن اجتيـازه بالصبـر والتـفكيـر والتـدبر. ويمكن المضي فيـه بالعـزم والعـزيمة، والمثـابرة. واجتماع الكلمة. قدرتنا على اجتياز المنحنى رهينة بخمسة عناصر:

١- الإيمان بضرورة تطوير التعليم.

٢- التخطيط الهادف المبني على أسس علمية.

٣- تفويض الصلاحيات.

٤- تهذيب النظم واللوائح بما يسمح بالإبداع.

٥- المحاسبة التي تحمل الجزرة والعصا.

تطوير التـعليم هو الطـريق الموصل إلى التنمـيـة الاقـتـصـادية والاجتماعية.

وهو الوسيلة لأن تتبوأ الدول العربية مركزاً متميزاً بين الأمم.

تطوير التعليم مسؤولية مشتركة بين مؤسسات الدولة والقطاع الأهلي. بين رجال التربية وأصحاب الرأي والفكر وأساتذة الجامعات ورجال الأعمال. كلهم راعٍ وكلهم مسؤول عن رعيته. وكثير منهم يعرف أكثر مما أعرف، فليغفروا لي تطفلي، وليعتبروا حديثي من باب التذكير.

- نبدأ مسيرة تطوير التعليم بمشروع رائد قبل أن نتوسع. قد يكون المشروع تطوير التعليم الثانوي أو الجامعي أو المهني أو هو التطوير الشامل. الأمر متروك لأصحاب الشأن.
- نطرح على أنفسنا سؤالاً. ما الذي نريده من خريج مرحلة التعليم التي نخطط لها.. علماً وسلوكاً ودربة؟
- ننشئ مجلساً أعلى لتطوير التعليم أعضاؤه متفرغون لهذه القضية ويرتبطون مباشرة برئيس الدولة.
- يصاغ الهدف الذي نسعى إليه كتابة فيما لا يزيد عن صفحة واحدة. تصبح النبراس الذي نهتدي به ونسخر من أجله طاقاتنا.
- يدعى لفيف من الخبراء في علوم التربية والاقتصاد والصناعة والفكر والحياة لتحويل الهدف إلى خطة عمل.

- نضع خطة العمل وفي ذهننا تراثنا ومبادؤنا وأخلاقنا، وقبل ذلك دعوة القرآن الكريم لنا لكي نمارس التفكير والتدبير والابتكار، ونلتمس مواطن القوة والعزة والكرامة.
- نصوغ مناهجنا على ضوء أحدث النظريات الحديثة في التعليم والتربية. ولعمري هي نظريات مارسها أسلافنا، ولكن غطت عليها طبقة كثيفة من غبار التقليد والجمود.

هذا هو الإطار العام لمشروع رائد لتطوير التعليم كما أراه. القارئ أو المسؤول عن التعليم ليس ملزماً بأخذ هذا الطرح على علاته. كل الذي أرجوه هو أن يحفزه للتساؤل عن قضية التعليم ومدى حاجاتنا إلى تطويره وما وسيلتنا لهذا التطوير. علّ القضية تحظى بنقاش جادّ وموضوعي يتبعه عمل. علينا أن لا نخشى التجديد ما دامت أقدامنا تقف على أرض صلبة من العقيدة والأخلاق.

ذلك إن أردنا أن ننشئ أجيالاً من الشباب يجوبون آفاق الفضاء ويخترقون طبقات الأرض ويغوصون في أعماق البحار. ويصبحون أداتنا للتغيير إلى الأفضل.

المراجع العربية

١- العرب وتحديات القرن الواحد والعشرين: حوارات في الفكر العربي المعاصر. عمان: مؤسسة عبد الحميد شومان، 2000 (ص ٢١٧-٢٣٧ & ٤٢٧-٤٥٣).

٢ - أحمد عبد الفتاح الزكي. التجربة اليابانية في التعليم: سلسلة دراسات في التربية المقارنة (٢). الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 2006، ص ٢١-٨٢.

٣- محمد جابر الأنصاري. العالم والعرب سنة ٢٠٠٠. بيروت: دار الآداب، 1988، ص ١٧ & ٩٨.

٤ - نحو مجتمع متكامل قائم على المعرفة في الدول العربية: الاستراتيجيات وطرائق التطبيق. اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا. نيويورك: الأمم المتحدة، 2005 ، ص١-٣٥.

٥- نبيل علي ونادية حجازي. الفجوة الرقمية: رؤية عربية لمجتمع المعرفة. سلسلة عالم المعرفة رقم ٣١٨، الكويت: ٢٠٠٥.

٦- بناء مجتمعات المعرفة والتحديات الجديدة التي تواجه التعليم العالي. تقرير صادر عن البنك الدولي. القاهرة: مركز معلومات قراء الشرق الأوسط (ميريك)، 2003 / 9227.

٧- لين أولسون. ثورة في التعليم: من المدرسة إلى العمل. ترجمة شكري عبد المنعم مجاهد. القاهرة: الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية.

٨- دونا أوتشيدا وآخرون. إعداد التلاميذ للقرن الحادي والعشرين. ترجمة محمد نبيل نوفل. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2004.

٩- عبد العزيز السنبل. التربية والتعليم في الوطن العربي: على مشارف القرن الحادي والعشرين. دمشق: منشورات وزارة الثقافة ، 2004.

١٠- زهير أحمد السباعي. تجربتي في تعليم الطب باللغة العربية. الدمام: نادي المنطقة الشرقية الأدبي، 1996.

١١- هشام الشرابي. مقدمات لدراسة المجتمع العربي. بيروت: دار نلسون، 1999، ص ١١٨-١١٩.

المراجع الانجليزية

12- White Merry. The Japanese Educational Challenge: A Commitment to Children. New York: The Free Press. 50-91.

13- Tsungeyoshi Ryoko. The Japanese Model of Schooling. New York: Routledge Flamer. 21-91

14- The digital Classroom. Finnish Board of Education. 2006.

15- Mayer Federico in Collaboration with Jerome Binde. The world Ahead: Our Future in the Making. Paris: UNESCO Publication; 2001.

16- Fagerlind Ingemar and Saha Lawrence. Education and National Development. Oxford: Pergamon Press. 1992.

17- Davis Don. Introduction: in Education and the Arab World. Challenges of the next Millennium. The Emirates Center for Strategic Studies and Research. 1-19.

18-Gates Bill. The Road Ahead. New York: Penguin Books. 1996; 208-235.

كتب للمؤلف

باللغة العربية:

١- الصحة العامة في المجتمع العربي. القاهرة: منشورات مطبعة سجل العرب، ١٩٧٥.

٢- صحة الأسرة. جدة: مطبوعات تهامة، ١٩٨٤.

٣- كيف تتقي الأمراض وضربة الشمس في موسم الحج. الرياض: مطابع سفير، ١٩٨٤.

٤- الصحة في المملكة العربية السعودية. الرياض: مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية، ١٩٨٨.

٥- خلق الطبيب المسلم. الدمام: دار ابن القيم: ١٩٩٠.

٦- الرعاية الصحية الأولية عام ٢٠٠٠، أشرف على التعريب بالاشتراك مع د. سيف الدين بلال. قبرص: دار دلمون للنشر، ١٩٩٠.

٧- الصحة في حفر الباطن. بالاشتراك مع د. نبيل قرشي. جدة: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٩٩٠.

٨- القلق وكيف تتخلص منه بالاشتراك مع د. شيخ إدريس عبدالرحيم دمشق: دار القلم، ١٩٩١.

٩- الطبيب: أدبه وفقهه. بالاشتراك مع د. محمد علي البار. دمشق: دار القلم، ١٩٩٣.

١٠- حوار بين الأم والطبيب. دمشق: دار القلم، ١٩٩٤.

١١- تجربتي في تعليم الطب باللغة العربية. الدمام: نادي المنطقة الشرقية الأدبي، ١٤١٤هت.

١٢- طب المجتمع: حالات دراسية. تحرير زهير السباعي. القاهرة: الدار العربية للنشر والتوزيع، ١٩٩٥.

١٣- التثقيف الصحي: مبادئه وأسلوبه. بالاشتراك مع حسن بلة الأمين. الرياض: دار الخريجي للنشر والتوزيع، ١٩٩٦.

١٤- أيام من حياتي (سيرة ذاتية). الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ.

١٥- أخلاقيات العمل. جدة: مطابع السروات، ١٤٢٤هـ.

١٦- نحو صحة أفضل. جدة مطابع السروات، ١٤٢٤هـ.

باللغة الإنجليزية:

17- The Health of the Family in a changing Arabia. 4th edition. Jeddah: Tihama publications; 1984.

18- Community Health in Saudi Arabia; A Profile of Two Villages in Qassim Region. 2nd edition. Jeddah: Tihama publications; 1984.

19- Health in Saudi Arabia - Volume one. Riyadh: Tihama publications; 1985.

20- Health in Saudi Arabia - Volume Two. Riyadh : King Abdul Aziz City for Science and Technology; 1987.

21- Co- Author in WHO Expert Committee on the Role of Hospital at the First Referral level. Technical Report Series 744. Geneva: World Health Organization; 1987.